«الآداب» : ربع قرن ...

بهذا العدد ، تدخل « الآداب » عامها الخامس والعشرين ..

ولعلّ « الآداب » هي المجلة الادبية العربية الوحيدة التي واصلت صدورها طوال هذه الفترة بلا انقطاع ، باشراف رئيس تحرير واحد بلا تغيير !

وصمود « الآداب » ربع قرن ، يُعَدّ — بلا مبالغة — في **المعجزات** ..

لقد ظهرت في هذه الحقبة عشرات المجلات الفكرية والادبية ، في مختلف انحاء الوطن العربي ، وغابت جميعا على وجه التقريب ، او تقلّب عليها كثيرون من رؤساء التحرير ، او تغيّرت وجهةً ومادة ، او تقطّعت في الصدور .

اما « الآداب » فقد تعثّر صدورها مرتين فحسب ، بسبب حربين داخليتين في لبنان : عام ١٩٥٨ وعام ١٩٧٦ . ولكنها لم تحتجب قط ، بل دُمج بعض اعدادها ، فتقلّصت على الاقل الى عشرة اعداد بدلا من اثني عشر ، وعلى الاكثر الى اربعة اعداد .

وطوال ربع القرن هذا ، عانت « الآداب » من عقبات كثيرة ...

عانت من منع اعدادها في كثير من البلدان العربية ، حتى اننا لا نذكر عددا واحدا منها اجيز في جميع العواصم العربية دون استثناء .

وعانت من اهمال وزارات التربية والثقافة العربية التي لم تسجل الا وزارة او وزارتان بعض الاشتراكات فيها ، وهي تتجاوز العشرين وزارة !

وعانت من جشع المكتبات التي كانت ولا تزال تلتهم معظم اثمانها ، فتعرّضها الى خسارة مؤكدة تتجاهلها ادارة المجلة بادخالها في حساب « دار الآداب » ...

وعانت من منافسة مجلات وزارات الثقافة والاعلام والتربية التي تَرصد لها مبالغ كبيرة لا تضع في الاعتبار حساب الربح والخسارة ..

وعانت .. وعانت ..

ولكن « الآداب » صمدت ، على ضعف احيانا ، وعلى تعب ..

غير انها لم تسقط صريعة هذه العقبات ، على خطورتها وخطرها .

لانها تؤمن بانها تضطلع برسالة ، وتقوم بدور .

رسالة الدفاع عن القومية العربية ، ودور التعبير عن تطوّر الفكر العربي الحديث .

حتى ان المؤرخ الادبي لا يستطيع ، في رصد سيرة هذا التطور ، الاستغناء عن الرجوع الى « الآداب » ، كمصدر اساسي من مصادر الثقافة العربية المعاصرة .

والحق ان هذا الموضوع هو الذي سيكون موضوع العدد الممتاز الذي نعمل الآن على اعداده : الفكر العربي الحديث كما عبّرت عنه « الآداب » خلال ربع قرن ..

فليس لنا اذن ان نستبق الحديث عن دور هذه المجلة ، لان ذلك سيتولاه الدارسون والنقّاد والادباء وجلهم من كتّاب « الآداب » .

ولكنا ندعو القراء كذلك ، لا سيما اولئك الذين تابعوها منذ صدورها ، ان يكتبوا لنا انطباعاتهم عن مجلّتهم ، لندرجها في باب خاص نفرده في هذا العدد الممتاز .

وبانتظار صدور العدد الذي ستسبقه بضعة اعداد عادية من اعداد هذا العام ، لا اجد الاّ ان احيّي كتّاب « الآداب » وقراءها ، واهنئهم ببلوغ مجلتهم عامها الخامس والعشرين ، مؤكدا العهد على المضيّ في اصدارها وتجديدها ما دمت على قيد الحياة ..

سهيل ادريس

رجاء النقاش

لبنان والثقافة العربية

نعيد فيما يلي نشر هذه المقالة التي كان الكاتب العربي المصري الاستاذ رجاء النقاش نشرها في مجلة « المصور » القاهرية في اثناء محنة لبنان ، شاكرين له تحيته للبنان عامة ولصاحب « الآداب » خاصة .

« التحرير »

الحزن على لبنان كبير ، كبير .. فقد كانت لبنان رغم كل العيوب والاخطاء موطنا من مواطن الازدهار العربي الحقيقي ، فقد كان في لبنان خلال السنوات الثلاثين الماضية اجمل العمارات التي ظهرت في العواصم العربية، واجمل الفنادق ، واجمل المقاهي ، واجمل المصايف ، واجمل الازياء .

ولكن هذا كله - في رأيي - كان هامشا من هوامش الازدهار ، ولم يكن هو الجوهر الذي يثير الاعجاب والتقدير .. ويثير اليوم في النفس حزنا ليس بعده حزن .

وجوهر الازدهار الحضاري في لبنان كان يتركز كما رأيته على حقيقته في الحركة الثقافية .

وكنت عندما ازور لبنان ولمدة اسبوعين اخرج منها بحصيلة وافرة ...

كنت اشاهد فيها احدث الافلام المعروضة في العالم .

وكنت اشتري منها احدث الكتب الاجنبية التي كانت تظهر في مكتباتها في نفس الوقت الذي كانت تظهر فيه في لندن او نيويورك او باريس .

وكنت اقرأ فيها احدث الاخبار العالمية .. فقد تحولت بيروت الى مركز دولي للاخبار لا مثيل له في الشرق كله .

وكان من عادتي ان ازور صديقي الكاتب الكبير ميشال ابوجودة ، صاحب اهم « عمود » يومي سياسي في الصحافة العربية الحديثة ... كنت ازوره في مكتبه بجريدة النهار ، فأسمع كل اخبار الدنيا ، واهم اخبار الدنيا في ساعات قليلة ، فقد كان مكتبه مثل مكاتب كبار الصحفيين العالميين ، مكانا تلتقي فيه شخصيات بارزة ، وصحفيون من شتى انحاء الدنيا ، وسياسيون مسئولون ، ولذلك كانت كل اخبار الدنيا تتجمع هناك .

على ان بيروت لم تقتصر على ان تكون سوقا لبيع احدث السلع الثقافية في العالم ، ونشر الاخبار .

كلا ... لقد قامت لبنان بدور خطير في حماية الثقافة العربية .

وكان هذا الدور متشعب الجوانب ، ولولا هذا الدور لاصيبت الثقافة العربية المعاصرة بنكسة خطيرة ، لم تكن تستطيع ان تنهض منها قبل جيل كامل .

فالجيل الادبي الجديد الذي ظهر في اوائل الخمسينات في الوطن العربي كله لم يجد فرصة للظهور الا في بيروت ، وبعد ان قدمته بيروت للحياة الادبية استطاع ان يقف على اقدامه ويلعب دوره الادبي بعد ذلك .

ان نازك الملائكة ، والسياب ، والبياتي ، وشفيق الكمالي ، وعبدالصبور وحجازي ، وسعدي يوسف ،وابو سنة ، وأمل دنقل وغيرهم من شعراء هذا الجيل ظهروا في بيروت اولا ، وقدمتهم بيروت الى الحياة الادبية وسهرت على انتاجهم واسمائهم حتى اصبح لها قيمتها ، ووزنها في الادب العربي والحياة العربية .

وفي ميدان القصة ظهر في بيرت عبدالسلام العجيلي وزكريا تامر ، وعبدالرحمن فهمي ، وسليمان فياض وابو المعاطي ابو النجا وغالب هلسا وغيرهم من اشهر المواهب القصصية في الجيل العربي الجديد .

وفي بيروت اشرقت لاول مرة عبقرية الطيب صالح الروائية .

هذه النماذج كلها تعني شيئا واحدا هو ان لبنان قد احتضنت الحركة الادبية الجديدة التي كانت تعاني في

بلادهـا صعوبات متعددة . لم تتساءل بيروت يومـا عن اسماء هؤلاء الكتاب والشعراء . بل فتحت ذراعيها لفنهم وكتاباتهم دون تردد .. وكانت بذلك تفتح بابا واسعـا للاجتهاد والتجديد في الادب العربي المعاصر . وبفضل بيروت ولد الجيل الادبي العربي الجديد الـذي يحتـل مكان الصدارة الان في حياتنا الثقافيـة في كل مكان .

واني لاذكـر اليوم بالخير هنا مجلة عظيمة هي مجلة « الآداب » ، التي استمرت تصدر شهريا في بيروت منذ سنـة ١٩٥٣ حتى انقطعت عنا اخبارها منذ شهور .

اذكـر هذه المجلة واذكـر صاحبها الاديب الفنـان الدكتور سهيل ادريس . لقد لعبت هذه المجلة دورا كبيرا جدا في احتضان الجيل الادبي الجديد وتمهيد الطريـق امامه . ولم يكتف سهيل ادريس بنشر الانتاج الادبـي للجيل الجديد في مجلة الاداب ، بـل انشأ دار الآداب للنشر ، وكان لهذه الدار الفضل الاكبر في اصدار كثير من الكتب والدراسات ودواوين الشعر والروايـات ومجموعات القصص ، لكل البارزيـن مـن كتاب الجيـل الجديـد .. وذلك قبل ان يبرزوا وقبل ان يعرفهـم النـاس .

ودور سهيل ادريس في الخمسينات والستينات هو اتمام لدور مشابه في الثلاثينات والاربعينات قام بـه الاديب العربي الكبير احمد حسن الزيات عن طريق مجلة « الرسالـة » التي انشأهـا سنـة ١٩٣٣ واستمرت تصدر حتـى سنـة ١٩٥٣ .

وخلال عشريـن سنـة متصلة استطـاع الزيات ان يقدم للثقافة العربية جيلين كامليـن من اجيال الادبـاء والمثقفيـن العرب المعاصريـن .

وبعده ظهر سهيـل ادريس فـي الخمسينات والستينات ليواصل هذه الرسالة الثقافية العظيمة .

ولا املك هنا الا ان اقـول لسهيل ادريس وانا لا اعرف الان عن اخباره شيئا ... لا املك الا ان اقول له :

رعاك الله يا سهيل وحماك من هذه المحنة الكبيـرة وعوضك خيرا بحق ما قدمته لامتك العربية ولكل اصحاب الاقلام الجديدة فيها من العون والحب والرعاية .

هذا نموذج لمـا قدمته بيروت من اجل الادب العربي الجديد . على ان بيروت لـم تتوقف عند هذه الحدود بل قامت بخدمة جليلة في نشر التراث العربي القديم كلـه في طباعـة رائعة راقية .

التتمة على الصفحة ـ ٧١ ـ

د. اسرائيل شاحاك

عنصرية دولة اسرائيل

الدكتور اسرائيل شاحاك هو رئيس الرابطة الاسرائيلية لحقوق الانسان والمواطن . وهو يدين في كتابه الذي صدر حديثا باللغة الفرنسية بعنوان « عنصرية دولة اسرائيل » ألوان التعذيب واساليب تدمير القرى والتمييز العنصري واغتصاب الاراضي العربية والاحتلال الوحشي والاضطهاد .

ويتعرض اسرائيل شاحاك كل يوم للاغتيال في اسرائيل على أيدي الاسرائيليين الفاشست الذين يلاحقونه بين الجامعة العبرية التي يقوم فيها بالتدريس وبين منزله ومكتب الرابطة الاسرائيلية لحقوق الانسان .

وتنشر « الآداب » فيما يلي ترجمة لفصل هام من هذا الكتاب الذي لا يشك احد في خطورته واهميته ، وان كانت لنا جميعا تحفظات كثيرة على ما ورد فيه من احكام وأفكار .

أ ـ ما معنى « دولة يهودية » ؟

يشكو معظم ما يكتب عن اسرائيل والجوهري مما يقال عنها خارج حدودها ، من فجوة اساسية : هي جهل أكيد بأن « دولة اسرائيل » ليست ـ لا في المبدأ ولا في الواقع ـ « دولة اسرائيلية » ، ولا هي « دولة الاسرائيليين » ،بل هي دولة « يهودية » .

ماذا يعني هذا ، عمليا ؟

لنبدأ بالاحصائيات الرسمية : ان دولة اسرائيل تنشر كل عام « حولية اسرائيل الاحصائية ». ويكاد يكون مستحيلا ان نجد في هذه الحولية كلها احصائيات تتعلق بالاسرائيليين ، اننا لا نجد الا احصائيات تتعلق باليهود وبغير اليهود . وهكذا لا يوجد مثلا في اسرائيل احصائيات عن وفيات الاشخاص ، بل يوجد فقط احصائيات عن وفيات « اليهود » و« غير اليهود ». وهكذا ، مثلا آخر ، حين تحقق دولة اسرائيل رسميا بوفيات الاطفال داخل حدودها ، فهي لا تحقق بوفيات الاطفال الاسرائيليين ، لانه لا يوجد رسميا في اسرائيل اي طفل « اسرائيلي » . هناك رضع يهود ، ورضع غير يهود ، ليسوا موحّدين اطلاقا ، حتى احصائيا . واذا اتفق ، في حالات اخرى ، ان يوحدوا ، فلا يكتب « اسرائيليون » ،بل « المجموع » ، كما لو ان القضية هي جمع اجناس مختلفة .

ولا يقتصر الامر فقط على انه لا يوجد اسرائيليون في اسرائيل ، بل ان الحيوانات والنباتات هي نفسها مقسّمة الى يهودية وغير يهودية . واذن ، فان التحديد الاكثر حسيّة لدولة اسرائيل بصفتها دولة يهودية هو ان المسألة مسألة دولة لا تحصى فيها فقط حبة بندورة لتصنيفها الى بندورة يهودية ، وبندورة غير يهودية ،بل ان الهدف الاسمى للدولة هو اتاحة مثل هذا التصنيف للاشخاص حتى البندورة ، بشكل مطلق ونهائي .

على ان الاحصائيات انما هي انعكاس واقع ما . فما هو الواقع الذي تعكسه هذه الاحصائيات فيما يخص هذه الطبقة المسماة « غير اليهود » في قلب الدولة اليهودية ؟ ماذا يشعرون ، ومم يعانون ، وما هو مستقبلهم ؟

قبل كل شيء ، كما هي حالة كل اقلية مضطهدة، اين يسمح لغير اليهود ان يعيشوا في قلب الدولة اليهودية ؟ الجواب هو انهم ، في معظم الامكنة ، لا يحق لهم بكل بساطة ان يعيشوا . ان معظم الاراضي في اسرائيل تخص الدولة التي اخضعتها لانظمة تحظر على غير اليهودي ان يعيش فيها . ومحظور عليه ان يبني فيها بيتا ، ومحظور عليه ان يستأجر فيها شقة ، ومحظور عليه ان ينشيء فيها عملا تجاريا ـ وباختصار ، محظور عليه ان يعيش فيها. ويزيد من قسوة ذلك ووحشيته ان معظم هذه الاراضي التي تمارس عليها هذه القوانين التمييزية تخص هؤلاء الفلسطينيين انفسهم الذين يسمون في اسرائيل بغير اليهود ، وقد اغتصبت منهم

اغتصابا . وهكذا يكونون محرومين ، حتى بصفتهم مواطني « الدولة اليهودية » ،من حق استعمال اراضي دولت « هم » . وهكذا يوجد في اسرائيل مدن كاملة ـ الكرمل ، الناصرة الفوقا (١) ، هاتزور ، أراد ، ميتزبه ـ رامون وسواها ـ يحظر القانون فيها السكنى على غير اليهود . وحيث معظم الاراضي ملكيات خاصة ، كما في القدس او تل ابيب او حيفا ، تفعل « الدولة اليهودية » ما تستطيع ، ولا تبني الا احياء تمييزية لا يحق لغير اليهود السكنى فيها قانونا .

وابرز الامثلة هو مثال القدس « الموحدة » . فمنذ « توحيدها » عام ١٩٦٧ ، صودرت فيها اراض عديدة ، جميعها تقريبا تخص الفلسطينيين ، وقد بنت دولة اسرائيل على هذه الاراضي احياء جديدة و « مجمّعات سكنية كبيرة » . فهل خصّصت هذه الاحياء لسكنى كائنات بشرية ؟ أهي مخصصة لسكان القدس « الموحّدة » ؟ لا ! انها مخصصة رسميا وقانونيا لليهود ، وحدهم . ويستطيع مقيم غير يهودي في القدس ، كما يستطيع مواطن اسرائيلي غير يهودي ،ان يكون عضوا في البرلمان ، وضابطا في الشرطة او جنديا، ولكنه لا يستطيع ان يسكن في رامات ـ اشكول (١) .

وبالمقابل ، فان فرنسيا من باريس يأتي الى القدس ويثبت ان امه او جدته او ام جدته او جدة جدته كانت يهودية ، او يعتنق اليهودية على يد حاخام ارثوذكسي معترف به ، يُسمح له بالسكنى في رامات اشكول ، بل يستطيع كذلك ان يستفيد من قرض ضخم ومن اعفاء جمركي وضريبي على الدخل لبضعة اعوام ، ومن مساعدات مادية اخرى يمثل مجموعها مبلغا محترما . كل هذا ، بالطبع ، يجري تحت انف «غيراليهود» المقيمين في الامكنة ، مواطني الدولة اليهودية « الديموقراطية » ! وبامكاننا ايراد امثلة مشابهة بالنسبة لجميع مظاهر الحياة في اسرائيل التي يمكن ان نختصرها بمبدأ بسيط : في الدولة اليهودية ، اليهود وحدهم يعتبرون بشرا . اما غير اليهود فلهم وضع الحيوانات . وهي حيوانات مفيدة احيانا ، ومضرّة احيانا بل خطرة . وثمة اشخاص يعتقدون انه لا ينبغي معاملة الحيوانات وغيراليهود معاملة قاسية ، واخرون يعتقدون ان هذا لا اهمية له . ولكن كل من يؤمن بمبدأ الدولة اليهودية موافق كذلك على ان غير اليهودي في الدولة اليهودية ليس « انسانا » (اي ليس « غاية في ذاته » على حدّ تعريف « كانت »)، وانما هو تابع

(١) الناصرة ـ الفوقا هي « مدينة أنماء » يهودية كليا انشئت لصق مدينة الناصرة العربية ، في الجليل .

(١) رامات ـ اشكول ، مجمع كبير من المجمعات الجديدة الكبيرة التي اقيمت على اراض مصادرة في الضاحية الشرقية من القدس العربية.

للمصلحة اليهودية .

من اجل هذا ، نجد في اسرائيل لغة برمّتها مؤلفة من فكرتين مزدوجتين في العبرية واحدة لليهود ، واخرى لغير اليهود ، وهي افكار تصعب ترجمة بعضها الى لغات أخرى . ان اليهود وحدهم « يقيمون » ـ وللكلمة العبرية مفاهيم ايجابية . وقد قررت حكومة الدولة اليهودية مثلا ان « تهوّد » الجليل ـ اي ان تصادر ، بطريقة او باخرى ، اراضي تخص غير اليهود لتضفي على المنطقة طابعا اكثر يهودية . ولا تعتبر الارض في اسرائيل « قومية » ، اذا كانت اسرائيلية ، بل اذا كانت « يهودية » ، والاراضي التي تخص غير اليهود تعتبر اراضي « لم تنقذ بعد » . ونقل هذه الاراضي الى ايدي اليهود ، هو « خلاصها » . ومن المفيد ان نسجل هنا انه ليس ثمة اي فرق ، حول هذه النقطة ، بين اليمين واليسار ، او على الاصح ، بين اليمين و« اليسار » الصهيوني . وهذا اليسار قد انحاز دائما الى مجمل المبادىء العنصرية المذكورة اعلاه . ان جميع « الاشتراكيين » الصهيونيين يقرون النظرية التي تذهب الى أن الارض « تنقذ » حين تنتقل من ايد غير يهودية الى ايد يهودية . وكون هذه الارض تنتقل الى ايدي رأسمالي يهودي او عامل يهودي ، لا اهمية له فيما يتعلق ب « خلاصها » . وعلى هذا النحو نفسه ، فان كون هذه الارض قد « انقذت » من ايدي فلاح فقير او غني من مالكي الارض ، لا اهمية له كذلك ، المهم ان« تنقذ » الارض من ايد غير يهودية وان تنتقل الى ايد يهودية .

ومن الضروري التذكر بأن هذا التطور هو نظريا لامتناه . وبهذا المعنى، فان النظرية الصهيونية ـ التي هي نظرية الدولة اليهودية ـ تتميز « سلبيا » عما اخضع له هنود اميركا ، او عما أخضع له زنوج أفريقيا الجنوبية . ففي الولايات المتحدة ، اتخذت تحفظات ، وفي افريقيا الجنوبية كذلك ، في حين ان النظرية الصهيونية لا تكتفي باعلان نيّتها ، بل تبذل كل ما في وسعها لتستولي على « كل شيء » وان تستأثر حتى بآخر بوصة من الارض التي يملكها غير اليهود . وحتىاليوم ، لا يزال عملاء الحكومةالاسرائيلية، ومبعوثو المنظمة الصهيونية يجوبون قرى اسرائيل الفلسطينية ، بما فيها القرى التي سبق لمعظم اراضيها ان صودرت لصالح الاستعمار (« الاقامة ») اليهودية، ويمارسون ضغوطا مختلفة ـ بمساعدة الشرطة السرية طبعا وسائر اجهزة السلطة ـ على القرويين ليتسلموا او يبادلوا او يشتروا ، وبكلمة واحدة « لينقذوا » الاراضي التي يملكها غير اليهود . وحتى اليوم ، يعلمون في رياض الاطفال وفي مدارس اسرائيل انه مطلوب « انقاذ » الاراضي . وكون هذه الاراضي « تُنقذ » من ايدي « اسرائيليين » (اي مواطني دولة

اسرائيل) فان هذا لا يغير شيئا ! انه لا يدل مرة اخرى الا على انه ليس ثمة « اسرائيليون » في اسرائيل.

هذا الوضع الذي يمثل تحقيق الاماني الحقيقية المشتركة للحركة الصهيونية كلها منذ بداءاتها ، حدّده بأوضح صوره البروفسور بنزيون دينور ، الذي كان اول وزير للتربية الوطنية لدولة اسرائيل ، وهو مؤرخ ومثقف ، وصديق قريب لبن غوريون ، في المقدمة التي كتبها لكتاب « تاريخ الهاغانا » (١) الذي نشرته « المكتبة الصهيونية » للمنظمة الصهيونية العالمية ولجيش الدفاع الاسرائيلي (منشورات معاركوت ، ١٩٥٤). وقد اوضح ان الهاغانا انما ولدت ، لانه لم يكن كافيا ان تكون الحرف والصناعة كلها ، او اهمها على الاقل ، في ايدي اليهود . « فعلى اليهود ايضا ان يتعلموا السيطرة على مهنة الاسلحة ، ليذيعوا علنا انهم « سادة » وطنهم القديم . » لاننا « في الوقت الحاضر نتحدث عن الاستعمار ، وعن الاستعمار فقط . انه هدفنا القصير المدى ، ولا نتكلم الا عن هذا . ولكن من الواضح ان انكلترا تخص الانكليز ، ومصر تخص المصريين ، تخص اليهود . وسنقول للعرب : « اندفعوا » ، فاذا لم يوافقوا ،واذا قاوموا ، فسندفعهم بالقوة . سنضربهم، وسنرفس مؤخراتهم وسنجبرهم على ان يندفعوا » . ويضيف البروفسور العلاّمة جدا انه يحسن احيانا الصمت وعدم التحدث عن الاهداف النهائية : « ان القلب لا يكشف نفسه للفهم » ولكنه يتوحّد مع اهدافه بكل روحه وبكل قوته (ص ٥ و ٦) .

ويهمنا ان نوضح ان هذه التصريحات (وكان بالامكان ايراد كثير غيرها ، مشابهة) قد نشرت رسميا في اسرائيل ، ولم تثر اي نقاش ، لا في قلب « النظام » الاسرائيلي ، ولا بين الصهيونيين في الخارج . والواقع ان مثل هذه التأكيدات ، شأنها شأن الاحصائيات الرسمية في اسرائيل ، تبدو طبيعية جدا في نظر هؤلاء الاشخاص . والنقاش الوحيد الذي اثير هو معرفة مقدار الاذى لما يسمى « المصلحة اليهودية » يمكن ان يؤدي اليه نشر هذه التصريحات ، اي الى اي حد يضع نشرها العصي في دواليب قمع غير اليهود بكشف الحقيقة . في هذه الحالة ، تنبش فورا جميع الصيغ المتعلقة بـ « الديموقراطية » و « الاسرائيليين » و « المواطنين » الخ ، ولكن من اجل التصدير فقط . اما في داخل اسرائيل ، فان الكلام الذي ذكرته يدرّس في المدرسة وفي الجيش من غير ان يثير النقاش . ففي الدولة اليهودية ، يبدو طبيعيا ان يكون هدف الدولة التوجه الى العرب بـ « اندفعوا ! » وبعد كل شيء ، ما عساه يكون « خلاص » الاراضي ان لم يكن هذا بالضبط ؟ ويبدو كذلك طبيعيا ، « نظرا لان العرب لا يريدون ان يندفعوا » ، ان تؤخذ العصا ويُضربوا بها حيث ينبغي . (هل تكون المعاملة مختلفة ازاء كلب او حمار يعاند ؟ ترى ، هل يعتبر العرب حيوانات في الدولة اليهودية ؟) ان الاسئلة الوحيدة التي تُطرح هي : متى ينبغي استعمال العصا ؟ وكم « عصا » يمكن ان نشتري ، او ليس هناك خطر بأن تكسر العصا او ان يعضّ الكلب ؟

انا اعلم جيدا ان هذه المعلومات لا بد ان تبدو غريبة وغير ممكنة الوقوع بالنسبة للقارىء الفرنسي في عام ١٩٧٥ ، ولكني اقول بهذا الصدد امرين : اولا : لقد جاء وقت كان هذا كله يبدو لي فيه انا شخصيا طبيعيا تماما . جاء وقت كنت انا نفسي فيه صهيونيا، افكر على غرار البروفسور دينور ، وحين قرأت للمرة الاولى السطور التي ذكرتها ، بعد نشرها بوقت قصير، لم تبدو لي طبيعية وصحيحة فحسب ، بل بديهية وغير قابلة للنقاش . ثانيا : ان على القارىء الفرنسي ، ليفهم فكرة وواقع الدولة اليهودية ، ان ينسى لحظة فرنسا ما بعد ١٧٨٩ ، ان ينسى « حرية ، مساواة ، اخوة » ، ان ينسى المعنى (الفرنسي) لفكرة « مواطن » و « مواطنية » ، وان يعود بذهنه الى « العهد القديم »، وبخاصة الى وضع اولئك الذين لم يكونوا كاثوليكيين في ذلك العهد . وايا ما كان ، فان اليهودي ما كان يمكن ان يسكن باريس حتى « الثورة الفرنسية » (باستثناء اليهود المنتفعين من « امتياز روي ») . ولكنه حين كان يذهب للقاء كاهن كاثوليكي ويصرّح له بانه يؤمن بالمسيح وبطبيعته المزدوجة ، الالهية والبشرية ، وبسائر مباديء الايمان الكاثوليكي ومعتقداته ، فقد كان يحصل على الاذن في اللحظة نفسها وبهذا الشرط . وبالطريقة نفسها ، اذا اتى اليوم فرنسي كاثوليكي لملاقاة حاخام وللتصريح امامه بانه لا يؤمن بالمسيح وانه يجحد جميع مباديء الايمان الكاثوليكي ، وانه بدلا من ذلك مستعد لتصديق كل ما يطلب منه الحاخام تصديقه ــ اذ ذاك ، وبهذا الشرط فقط ، سيمنح الحق الشرعي بالسكنى في رامات ــ اشكول او الناصرة الفوقا .

ان امنية دولة اسرائيل الرسمية « بانقاذ » جميع الاراضي ، شبيهة بأمنية « العهد القديم » بحمل جميع الفرنسيين على اعتناق الكاثوليكية . وبالامكان ان نناقش ، هنا وهناك ، في امور الوسائل والفرص . ايمكن الغاء مرسوم « نانت » ام الحدّ من تفسيره ؟ هل يمكن

---

(١) « هاغانا » تعني « الدفاع » ، وهي واحدة من المنظمات المسلحة للطائفة اليهودية في فلسطين في عهد الانتداب البريطاني. انها جدة الجيش الاسرائيلي الحالي .

للسياسة الخارجية ان تؤثر تأثيرا موقتا ام دائما على الوضع الداخلي ؟ اينبغي استعمال طريقة الرشوة ام ان طريقة التعذيب بواسطة الجنود الخيالة هي اكثر فعالية ؟ ولكن لم يكن هناك اي نقاش – عند الكاثوليك على الاقل – يتعلق بالمسلمة التي تنص على ان جميع الفرنسيين يجب ان يكونوا كاثوليكيين . وقد اتحد اليسوعيون والجنسينيون ضد البروتستانت . وفي موضوع « خلاص » الاراضي ، يعتنق الصهيونيون « الاشتراكيون » والبرجوازيون وجهات نظر مماثلة تماما .

هذا التماثل يشرح كذلك لماذا تبذل الدولة اليهودية هذه الطاقة كلها لحمل غير اليهود على اعتناق اليهودية، وتقوم في هذا الاتجاه بجهود شبيهة بجهود لويس الرابع عشر لحمل البروتستانت على اعتناق الكاثوليكية. فالدوافع متشابهة ، وكذلك الخوف الهستيري من رؤية اليهود يعتنقون دينا آخر . والضغوط التي تمارس في اسرائيل – ابتداء من معلمات رياض الاطفال والمدرسين حتى ضباط الجيش ، مرورا برؤساء البلديات ومدراء المدارس ومختلف الشخصيات – على غير اليهود (وخاصة المسيحيين) لاعتناق اليهودية ، تذكرنا بفرنسا القرن الثامن عشر ، وعلى نحو ما بالمانيا منذ اربعين عاما . والمسيحيون انفسهم هم في وضع صعب بصورة خاصة ، لانهم ليسوا مختونين ، فتسهل بالتالي معرفتهم. وما ان تكتشف العلامة ، حتى تصرخ الجموع – من اطفال او جنود – « غوي ! » (اي غير يهودي) بالطريقة نفسها التي كانت جموع اخرى تصرخ « يهودي! » من غير ان تكتفي بالصراخ. . وموقف السلطات هو دائما الموقف نفسه : أليس تربية الجماهير ، بل استغلال انفلاتها لاقناع العائلة باعتناق اليهودية « من اجل خيرك وخير الاولاد .. في دولة يهودية ، يجب ان يكون المرء يهوديا .. » ويمارس هذا الضغط في اسرائيل في حالات عديدة ، كما حدث في فرنسا بعد الغاء « مرسوم نانت » . ففي الحالتين اكتفي بالشكلية والطقوسية . فالايمان والمعتقد ليسا ضروريين لا هنا ولا هناك. فالمهم في الحالتين ، كما يحدث في كل نظام كلياني ، هو قمع حرية الفكر الانساني واجباره على الكذب علنا ، والتصريح بمعتقدات لا يؤمن بها ، لمجرد ان الدولة تطلب ذلك . وتتلقى الضحية الوديعة ، مقابل حريتها الفكرية ، مالا من يد السلطة القائمة ، وهو مال وفير بصورة عامة .

وهذا يشرح الاهمية الكبيرة التي تتلبسها في اسرائيل مسألة معرفة « من هو يهودي » . وليست المسألة الهية فقط . انها مسألة حقوق – حقوق مادية بدائية ، كحق التعاقد على قرض ، وتسلم شقة بثمن رخيص ، والسكنى في هذا المكان او ذاك ، وحقوق اعم من هذه ان يكون المرء انسانا بالمعنى الكامل للكلمة . ليس فقط في اثناء الحياة ، بل كذلك بعد الموت . وفي الدولة اليهودية ، المقابر اليهودية وحدها هي التي تحترم احتراما يكفي لعدم تدميرها . اما المقابر الاخرى، فلا يترددون في تخريبها اذا لزم الامر . ان فندق هيلتون في تل ابيب ، مثلا ، قد بني على انقاض مقبرة يافا القديمة ، وهي مقبرة رائعة . « وحديقة الاستقلال» في القدس تشغل بمعظمها موقع مقبرة المسلمين القديمة التي يعود عهدها الى القرن الثالث عشر . ومدينة « ياميث » – الجديدة – في شمال سيناء ، انما بنيت جزئيا في موقع مقبرة البدو المطرودين . وكذلك مسحت جميع المقابر في معظم القرى والضيع الفلسطينيه التي هدمت عام ١٩٤٨ .

وللاسباب نفسها بالضبط ، هدم لويس الرابع عشر مقبرة « بور رويال » . وللاسباب نفسها طلب لويس الخامس عشر ان يعترف المحتضرون بصلاحية البراءة البابوية « اونيجانيتوس » بوجود كاهن مرسوم، تحت طائلة رفض دفنهم ، في حين ان الكهنة الذين يعترفون بتلك البراءة هم وحدهم من يملكون حق اجراء عمليات الدفن .

ان ظاهرات مشابهة تنتج نتائج مشابهة ، والدولة اليهودية تشبه بطبيعتها ملكية ملوك فرنسا المسيحيين جدا . والنتائج التاريخية لمثل هذا الوضع هي بديهية، ولا يمكن تجنبها ، عاجلا او آجلا . ان « الباستيل » مآله الى السقوط ، لان نظاما هذه هي اسسه لا بد من ان يتصلب بلا انقطاع ويقوي سلطته ، ولا بد في الوقت نفسه من ان يزداد بلادة وبلاهة ، وتبقى مسألة معرفة كم هو عدد المعتقلين في الباستيل ، في فترة معينة ، مسألة لا أهمية لها . ان ما هو مهم ، هو ان بالامكان ان نرسل اليه ايا كان في اي وقت كان . و « العهد القديم » لا يستطيع ان يتراجع برضاه عن الباستيل : وبالطريقة نفسها ، لم تتراجع الدولة اليهودية ولن تتراجع عن « قوانين الطوارىء » لعام ١٩٤٥ التي تسمح ، كالاوامر الاستبدادية ، بسوق كل انسان الى السجن بلا سبب وبلا حدود (ولكن هذه القوانين لا تستعمل الا في وجه غير اليهود) .

والمسألة في رأيي ذات شقين : اولا ، شرح الوضع كما هو . فالشرح والنقاش يسهمان في وضع حد « للعهد القديم » واقامة نظام جديد يكون ، رغم اخطائه المكنة ، افضل من السابق . انه على الاقل سيعترف ان البشر هم بشر ، وان الحرية هي حق الانسان ، وليس فقط حق الكاثوليكي او اليهودي .

والآن ، يستطيع الفرنسيون ان يسألونا : « ماذا تريدون منا ؟ ان القضية ، بعد كل حساب ، هي قضية

التتمة على الصفحة – ٥٤ –

الخراب

سعدي يوسف

بخرابــه ارضى .
لكم كان التناسق مرهقا بين الشجيرة والريح ..
وددت لو في راحتي امسكت لحظة تدفع الاوراق
كف الريح ..
لحظة ان الوذ بكبرياء القائد الاعمى
ولحظــة ان يكون الصمت تاجي .

وجهي تلوث بالزجــاج
ويدي التي درّبتهــا طالت لتمسك بي :
اصابعها النحيلة فوق حنجرتي
وساعدهــا تشبث بالرتــاج .

من كان يعلم ان بستانا فتنت به طويلا ـ
كان يغمس ورده الورقي بالماء الاجاج ؟

من كان يعلم ان نخلا بالسماوة ـ
سوف يظهر في دكاكين السياحة
نخلة صفراء من ذهب وعاج ؟

من كان يعلم ان تحت البدلــة الزرقاء
قمصان العشيقــة ؟
ان تحت البدلة الزرقاء
اغطية الفنادق ؟
ان تحت البدلة الزرقاء
تذكرة الخطوط ؟
وان تحت البدلة الزرقاء
اوراق المداجــي ؟

بخرابه ارضى ...
لكم كان التناسق مرهقا ...
كم كان يرهقني احتجاجي ؟

٢٢ - ١١ - ١٩٧٦

أحمد ع. حجازي

محاولة في قراءة أبي نواس: الزمن والخمرة

عفا المصلى واقوت الكثب مني ، فالمربدان ، فاللبب
فالمسجد الجامع المروءة والدين عفا ، فالصحان ، فالرحب

لا يقف هنا ابو نواس على اطلال البصرة (*) ، ولا يبكي اماكنها الدارسة فالذي يبكيه ابو نواس هنا ليس اطلالا بالمعنى الذي نجده عند الجاهليين ، بل ان هذه الاماكن حين وقف عليها لم تكن قد صارت بعد اطلالا ، وانما كانت منازل عامرة ومرابع زاهرة .

ان ابا نواس هنا يقف على اطلال ذاته ويبكي نفسه .

ان الطلل الوحيد القائم في هذين البيتين الاولين في القصيدة يتمثل في كلمة « مني » التي تنهض بين الاماكن المذكورة بما في اصوات حروفها من رنين باك كأنه روح مهومة في قصر بـاذخ خلا من اهله .

لقد اقفرت هذه الاماكن « منه » فكأنها صارت بعده طللا خربا ، فهو يبكي فيها نفسه ويرثي زمانه الفقيد الذي لا يستطيع ان يتصوره او يستعيده الا من خلال هذه المرابع والاماكن والصور .

واذن فليس المصلى، وكثبان الرمال ، والمربد ، واللبب ،والمسجد، والصحان ، والرحب ـ وهي كلها اماكن ومواضع في مدينة البصرة التي شهدت طفولته وصباه ـ الا رموزا للزمن الذي يبكيه ابو نواس ، زمن الطفولة والصبا واليفاع ، وهو ايضا زمن المروءة والفضيلة ، او هو كما نقول نحن بلغتنا المعاصرة زمن البراءة ، حيث لعب وصلى وفتح عينيه على الحياة وعرف الصداقة والرفقة .

وابو نواس يذكر هذه الاماكن في قصائد اخرى من ديوانه ويجعلها رموزا للفتنة والطيش كما في قصيدته التي يقول فيها :

لنا بالبصرة البيضاء الاف واخوان
بهاليل مساميح لهم فضل واحسان
كان المسجد الجامع عند الليل بستان
وفيه طريف النبت والازهار الوان
له من جند ابليس على الفتنة اعوان
فمن يسأل عن قلبي فقلبي حيثما كانوا

وكما في قصيدته التي يقول فيها :

رايت المسجد الجامع قفاعة ابليس
بناه الله والطالع برج غير منحوس
به خلت ظباء الانس في القبح مانوس
اذا راحوا على العشاق اهل الضر والبوس
فكم في الصحن من قلب كليم الجرح مخلوس

ورغم التشابه بين هذه الاشارات المكانية في المعنى العام ، فهي تكتسب في كل قصيدة ، معنى خاصا ودلالات رمزية تختلف من قصيدة لاخرى ، فاذا كان ابو نواس في الابيات الاولى النونية يسعى الى ان يجعل المسجد الجامع ساحة لمهرجان الربيع والصبا يجتمع فيه الله والشيطان والطبيعة وما وراء الطبيعة والتقوى والفتنة ، ويسعى في الابيات الاخرى السينية الى ان يجعل هذا المسجد الجامع بنوع من السخرية قفاعة ابليس (اي آلته التي يصطاد بها ضحاياه وعرشه الذي يدير منه شئون مملكته) فهو في قصيدتنا يتحدث عن شيء آخر ، عن الزمان الذي ولى والعمر الذي انقضى والذي يبكيه ابو نواس كأنه يبكي شقا من نفسه قد مات او صورة اخرى منها قد نسخت .

وها هو يفصح عن هذا المعنى في البيت الثالث فيقول عن هذه المنازل :

منازل قد عمرتها يفعا حتى بدا في عذاري الشهب

فالاماكن لم تتغير ، بل هو الذي تغير وظهر البياض في شعره الاسود ، وعندئذ بدت له هذه المنازل التي كان يعمرها في صباه خرابا بلقعا .

من هنا نستطيع أن نقول ان هذه الاطلال التي وقف عليها ابو نواس كانت اطلال زمان مضى ووقت فات ، لا اطلال منازل ومواضع .

وسوف نرى ان الاحساس بالزمان حاضر في القصيدة حضورا قويا ، والشاعر دائم الاشارة اليه تصريحا وتضمينا .

ولغة القصيدة تعبر عن هذا الاحساس تعبيرا قويا بالافعال والاسماء ، وهي تارة تجرد الاحساس وتسمي الزمن باسمائه الصريحة ، وتارة اخرى تجسده في صور ومواقف .

وخلال المقطع الاول في القصيدة ، وهو المقطع الرثائي اوالجنائزي الذي يبكي فيه الشاعر نفسه قبل ان ينتقل الى البحث عن الخلود او عن الزمان السرمدي في المقطع الآخر منها ، نرى انه في هذا المقطع الاول الذي يتكون من تسعة ابيات يستخدم تسعة عشر فعلا تكاد كلها تكون افعالا ماضية ، فليس فيها الا فعلان اثنان مضارعان والبقية افعال ماضية يدل اكثرها على معنى الفقد والضياع

(*) فصل من كتاب يصدر للشاعر قريبا حول منهجه في قراءة الشعر القديم .

والخراب (عفا . اقوت . انشعبوا . هيهات (فعل ماض بمعنى بَعُد) ابليت . اقتسمتني . رزئت) اما الفعلان المضارعان فهما ((لن يخلف)) و ((لم يبله)) وقد جاء اولهما بصيغة النفي في المستقبل والاخر بصيغة النفي في الماضي فهما لا يدلان على فعل يقع او حتى على فعل وقع ، وانما ينفيان وقوع الفعل في الماضي وامكان وقوعه في المستقبل ، وهي صيغة اشد امعانا في تصوير الفقد ، لانها تتجاوز معنى فقدان الموجود الى انكار وجوده من الاصل .

وكما وجدنا الافعال نجد الاسماء ، ومعظمها ينطق صراحة باسم الزمان او يشير اليه (اليفع . شرخ الشباب . الزمان . الدهر . ابدا . الروحة . المنقلب . الصبر) .

هذا عدا الاشارات التاريخية والاسطورية التي تؤكد معنى الفقدان والخراب ، كالاشارة الى سيل العرم الذي اغرق مدينة مأرب ، فخرج اهلها السبأيون متفرقين شاردين في الطرق والبلاد ، كما حدث لهؤلاء الفتية البصريين رفاق ابي نواس عندما حرجوا من البصرة وتفرقت بهم السبل . وهل الجرد الاعمى الذي يقول الدميري في ((حياة الحيوان الكبرى)) انه هو الذي نقب السد من اسفله ، ويقول الامام ابن الجوزي نقلا عن الضحاك انه كانت له مخالب وانياب من حديد ، هل هذا الحيوان الحديدي الرمادي الاعمى المتسرب الذي لا يكاد يرى او يمسك الا الزمان الذي يفعل فعله فينا ونحن غافلون عنه ، دون ان يبالي بالمسرات التي يقطعها والالام التي يزرعها ،هل هو الا الزمان الذي واجهه ابو نواس ورفاقه بشبابهم وعلمهم فما هي الا جولة وانهزموا امامه ضائعين في البلاد منشعبين ؟

بل نستطيع ايضا ان نجد في المطلع الذي اتبع فيه ابو نواس التقليد الشعري القديم بالوقوف على الاطلال هذا الجو التاريخي الذي يوقظ رائحة الزمن ويهيء الخيال للنفاذ الى جوهر القصيدة.

ولقد اثارت مسألة الوقوف على الاطلال في شعر ابي نواس اهتمام عدد كبير من الدارسين والنقاد الذين اولوها عناية كبيرة وقدموا فيها اجتهادات وتفسيرات قيمة اضاءت جوانب من شخصية وفن ابي نواس ، ولكن عيبها الوحيد في نظري ان كلا منها يحاول ان يطبق تفسيرا واحدا على ظاهرة فنية معقدة تتشكل في كل قصيدة على نحو خاص .

ومن المعروف ان ابا نواس كان كثيرا ما يسخر في شعره من الوقوف على الاطلال :

قل لمن يبكي على رسم درس   واقفا : ما ضر لو كان جلس !

*

عاج الشقي على رسم يسائله   وعجت اسأل عن خمارة البلد

*

سقيا لغير العلياء فالسند   وغير أطلال مي بالجرد

*

لتلك ابكي ولا ابكي لمنزلة   كانت تحل بها هند واسماء

*

مالي بدار خلت من اهلهاشغل   ولا شجانيلها شخص ولا طلل

*

الى آخر هذه المطالع المشهورة في تسخيف الوقوف على الاطلال. ومن اهم واشيع التفسيرات التي قدمها النقاد في هذه المسالة تفسير الدكتور طه حسين الذي درس شعر ابي نواس وطائفة اخرى من شعراء اواخر العصر الاموي واوائل العصر العباسي في الجزء الثاني من ((حديث الاربعاء)) باعتبار ان هذا الشعر يمثل ثورة على النهج التقليدي الجاهلي للقصيدة العربية التي كانت تبدأ غالبا بالوقوف على الاطلال والتي كان لا بد ان تشهد في تلك المرحلة التي تطورت فيها الحياة العربية الاسلامية تطورا كبيرا الوانا من التجديد، مثلها مثل غيرها من الفنون والعلوم والعقائد والمذاهب ونظم الحكم واساليب العيش والاجتماع . ولقد كان ابو نواس في رأي الدكتور طه حسين اشد الناس الحاحا في تغيير الاسلوب الشعري وتجديد اللفظ والمعنى ، وانه حين كان يسخر من البكاء على الطلول كان يطالب الشعراء بأن يكونوا صادقين غير منافقين مع انفسهم ((ولا تحسبن ابا نواس شاذا في هذا او منتحلا اياه انتحالا ، وانما هو اثر البيئة فيه .. فقد رأيته مما روينا ان ابا نواس لم يبتدع مذهبه في القديم ولا في المجون ابتداعا ، ولم يتكلفه تكلفا ، وانما عاش في عصر وبيئة كانا يضطرانه الى ان يرى هذا الرأي وينهج هذا النهج)) .

ومن الواضح هنا ان الدكتور طه حسين بتأكيده على مفاهيم ((العصر)) و ((البيئة)) و ((الصدق)) بمعنى الاستجابة الحتمية المباشرة للتأثيرات الاجتماعية والسياسية والثقافية من حوله ، انما كان يطبق المعايير النقدية التي حمل لواءها بعض النقاد الفرنسيين فيالنصف الاخير من القرن الماضي وخاصة سانت بيفوتين.

واذا كان هذا الرأي في شعر ابي نواس يفسر جانبا من شعره، فهو لا يفسر الجانب الاخر الذي التزم فيه ابو نواس بالشكل التقليدي للقصيدة العربية من ناحية البناء والنغم والروح واللغة والموضوعات كما نرى في قصائده في المديح والرثاء والفخروالصيد. لكن الدكتور طه حسين يعلل هذا الاختلاف بقوله ان الشعراء في ذلك العصر ـ عصر ابي نواس ـ كانوا يعيشون حياتين : حياة خاصة يخلصون فيها لانفسهم ويقبلون على لذات الحياة وفي هذا كان الشاعر حرا يرسل نفسه على سجيتها ، وحياة اخرى عامة يخالطون فيها المجتمع ويضطرون ان يتخذوا ما الف الناس من شكل وصورة ترضاهما الاخلاق وتقرهما النظم الاجتماعية والسياسية ((وهم مضطرون الى ان يتحدثوا الى امراء الناس واشرافهم لغة شريفة مختارة ، ترتفع عن الابتذال وتبرأ من تافه القول ، وربما اشتد فيها التكلف وعظم حظها من التصنع)) .

ولقد يبدو هذا التعليل مقبولا ضمن نظرة عامة في شعر ابي نواس ، لكنه لا يغني حين ننظر في عدد من قصائده ونريد ان ندرس كلا منها على حدة دراسة تفصيلية ،وهذا هو المثل امامنا فيالقصيدة التي نتعرض لها الان ، فهي كما نرى ليست من شعر المدح او الرثاء او الصيد الذي يتوجه به الشاعر عادة الى امراء الناس واشرافهم ، بل هي قصيدة وجدانية مستلهمة من تجربة الشاعر الذاتية وهمومه الروحية والفكرية الخاصة . وهي ليست في ذلك قصيدة نادرة في شعر ابي نواس ، فالتقليد الشعري العربي الخاص بالوقوف على الاطلال عميق في شعره حتى ليتجاوز الصورة الظاهرة المعروفة ويعبر عن نفسه في صور جديدة مختلفة كما نرى مثلا في قصيدته المعروفة عن الحانة المهجورة :

ودار ندامي عطلوها وادلجوا   بها اثر منهم جديد ودارس

مساحبمنجر الزقاقعلىالثرى   واضغاث ريحانطري ويابس

حبست بهاصحبيفجددتعهدهم   واني على امثال تلك لحابس

الست ترى معي ان اطلال هذه الحانة الفارسية القديمة في مدائن كسرى تعادل منازل حبيبات الشعراء الجاهليين بين الدخول وحومل او ببرقة ثهمد ، او بحومانة الدراج والمتثلم والرقمتين ؟ اولست ترى ان اثر جر الزقاق على الثرى يعادل رسم الدار وباقي

الوشم في ظاهر اليد ومراجيع الوشم في نواشر المعصم وسطور الكتب في قصائد امريء القيس وطرفة وزهير ولبيد ؟ والست ترى ان ضفاث الريحان عند ابي نواس تعادل بعر الآرام والاثافي والرماد المتخلف من نار الراحلين ؟ واخيرا الست ترى ان صحب ابي نواس الذين حبسهم في الحانة وجدد عهدهم هم انفسهم عذارى امريء القيس اللائي نحر لهن مطيته وسقاهن شرابه ، وهم انفسهم ندامى طرفة البيض كانهم النجوم ، وهم فتية الاعشى الذين يشبهون سيوف الهند ؟ الست ترى ان هذه القصيدة الرائعة وهي من خمريات ابي نواس التي يعدها الدكتور طه حسين من شعره الجديد البعيد عن التكلف والتصنع ليست الا وقفة شجية على الاطلال ؟

وانا بهذا لا انكر تجديد ابي نواس ولا احاول ذلك ، فانا مقتنع اشد الاقتناع بان ابا نواس كان شاعرا مجددا ما في ذلك شك ، لكني انكر فحسب ان يكون مقياس التجديد عنده هو سخريته من الاطلال ، فللتجديد سبل كثيرة ان كان من بينها الخروج على بعض التقاليد ، فمن بينها ايضا العودة الى بعض التقاليد عودة اختيارية مقصودة او استلهامها في انشاء اشكال جديدة منها .

واذا كان رأي الدكتور طه حسين في تجديد ابي نواس قد فتح ابوابا كثيرة في دراسة شعره وحظي بحماسة كثير من الدارسين والنقاد ، فقد عارضه اخرون نذكر منهم على سبيل المثال الدكتور محمد مندور الذي يرى في « النقد المنهجي عند العرب » ان سخرية ابي نواس من البكاء على الاطلال لم تكن دعوة الى التجديد وانما هي في الواقع محاذاة للقديم ، والمحاذاة اخطر من التقليد لان ابا نواس في رأي الدكتور مندور حافظ على الهياكل القديمة للقصيدة العربية مستبدلا ديباجة باخرى .

ويرى الدكتور عبدالقادر القط في مقال له عن حركات التجديد في الشعر العباسي ان سخرية ابي نواس من المطالع التقليدية ليست تعبيرا عن تجديد فني خاص او ثورة على القيم الشعرية القديمة ، فهو لم يكن يرى في الوقوف على الاطلال تقليدا فنيا « بل يعده سلوكا ذا دلالة حضارية ونفسية خاصة ، لذلك لا يقابله بالدعوة الى مذهب فني بل الى سلوك آخر يناقضه ، فاذا كان الشقي قد عاج يسائل الرسم فان الشاعر قد عاج ليسأل عن خمارة البلد ، وهو لا يريد ان يبكي ليلى او يطرب الى هند بل يقدم بديلا من ذلك دعوة الى الشراب . وهكذا نراه يكرر بعد كل دعوة الى نبذ الوقوف بالاطلال امرا بسلوك خلقي - لا اتجاه فني - فيقول « واشرب على الورد من حمراء كالورد ، واشرب من الخمر انت اصفاها ، واله عنه بابنة العنب » او تعبيرا عن رغبة وشعور نفسي كما في قوله « لتلك ابكي ولا ابكي لمنزلة ، ولكن سبتني البابلية ، احسن من ذاك بنت صافية » ومعنى ذلك ان الشاعر يتخذ الوقوف على الاطلال رمزا لسلوك خاص يمثل التزمت والتخلف عن مسايرة روح العصر الذي يعيش فيه » .

لكنني لا ارى رأي الدكتور مندور او الدكتور القط في هذه المسالة ، فلم يقف خروج ابي نواس عند حد استبداله ديباجة باخرى او دعوته الى سلوك خلقي جديد ، وانما شمل مادة الشعر ولغته واوزانه ووظيفته ومكانه في المجتمع .

ان السمة الاساسية التي ميزت ابا نواس والتي منحته مكانه في الشعر العربي كرائد كبير في نظري هي ان الشعر عنده لم يكن تعبيرا تلقائيا او وظيفة عامة ، وانما كان حياته وحقيقته التي يتفق فيها مع المجتمع بقدر ما يختلف ويقترب بقدر ما يبتعد . لم يكن الشعر لديه تعبيرا تلقائيا فحسب بل كان ايضا صناعة وفنا ، ولم يكن وظيفة عامة فحسب بل كان مناجاة وتمردا وبحثا عن الحقيقة كذلك ، ولم يكن قولا فحسب ، وانما كان قولا وسلوكا معا . واذا كان لما حققه ابو نواس بدايات ترجع الى العصر الجاهلي ذاته فقد اكتملت صورة الشاعر المجدد والتقت اطرافها في ابي نواس .

لكن الدكتور القط لم يكن وحده الذي فسر سخرية ابي نواس في وصف الطلول تفسيرا اخلاقيا ، فقد سبقه الى ذلك الاستاذ عباس العقاد في دراسته الطريفة الممتعة التي كتبها على اساس التحليل النفسي لشخصية هذا الماجن الشهير ، مثبتا فيها ان ابا نواس انما كان نرجسيا يعشق ذاته ، وهذا هو سر شخصيته في كل اطوارها ما يبدو شاذا فيها ، وما يبدو غير شاذ ، وهو مفتاح شعره كله ما يبدو جديدا وما يبدو تقليديا . وبالنسبة لمسألتنا بالذات ، مسألة السخرية من الوقوف على الاطلال ، فان الدافع اليها هو شعور ابي نواس النرجسي عاشق ذاته بعقدة النقص التي جاءته من ناحية وضاعة نسبه ، فهو يحاول ان يتغلب على هذه العقدة بادمان الخمر شراب الملوك والتغني بالمنادمة التي يجعلها قرابة تغني عن قرابة النسب والسخرية من الطلول بقصد هجاء اهلها من العرب المفاخرين بانسابهم ، فلهذا نهاه الخليفة عن الاستمرار في هذه اللجاجة وامره بوصف الطلول فقال :

دعاني الى وصف الطلول مسلط   لقد ضقت ذرعا ان اجور له امرا

فليس اللهج بالنعي على الطلول دعوة الى الجديد كما يتراءى من النظرة السطحية الى ظاهر العبارة . ولم يامره الخليفة بالكف عنه لانه تجديد ينكره ، ولكنه فهمه على معناه الذي لا يفهم سواه من هذا التهوس بتحقير الاطلال واهل الاطلال وخشى منه مغبته بين القبائل المتحفزة في تلك الاونة فنهاه عنه نهيا عن هجاء سياسي لا تحمد عقباه « وبعد فهل كان ابو نواس يتجنب بكاء الاطلال ايثارا للتجديد او ايثارا لمذهب كائنا ما كان من المذاهب الفنية ؟ كلا . فانه لم يدع الى تجنبها الا ليستطرد من ذلك الى النعي على اهلها ومفاخر انسابها ، والا فمطالعه في بكاء الاطلال والديار تزيد على مطالع الشعراء من معاصريه او المتقدمين عليه »

واذا كان القاريء يخرج من دراسة الاستاذ العقاد وهو مقتنع اشد الاقتناع بان ابا نواس كان نرجسيا ، فهو لا يستطيع ان يجد هذا الاقتناع بانه لم يكن مجددا ، فلماذا لا يكون النرجسي مجددا؟ واذا كانت عقدة النقص عند ابي نواس قد دفعته الى هجاء المتعصبين لانسابهم فلماذا لا تدفعه الى الخروج على تقاليدهم الفنية ؟ ان دراسة الاستاذ العقاد قد تغني في تفسير ابي نواس وعلله الخلقية وشذوذه وجانب من فنه ، لكنها لا تغني في تفسير كل جوانب فنه . والسبب انها ككل التفسيرات السابقة تحاول ان تجد سببا واحدا نفسر به كل شعر ابي نواس . ولا يصلح سبب واحد لتفسير ظاهرة فنية معقدة كشعر ابي نواس .

لكننا قد اطلنا في الوقوف عند هذه المسالة ، وكان قصدنا من وراء ذلك ان نخلص القاريء من كل موقف سابق من مطالع ابي نواس سواء تلك التي يسخر فيها من الاطلال او التي يقف فيها على الاطلال لنرده الى المجال الحقيقي لكل تقييم سليم ، وهو القصيدة ذاتها ، ففي اطار كل قصيدة نفهم مطلعها كما نفهم باقي اجزائها .

ونحن نرى ان من الخطأ تفسير مطلع قصيدتنا هذه على انه مجرد اثر من آثار تقليد ابي نواس للقدماء ، كما نرى ان من الخطأ البحث عن تفسير واحد لظاهرة الوقوف على الاطلال عند ابي نواس ، والصواب ان نفسر المطلع بحسب معناه في القصيدة . وهو كما نرى في قصيدتنا جزء اساسي منها ينتمي عضويا اليها ، ويكتسب معناه الخاص في اطارها . شاعر يتامل فعل الزمان بالبشر ، فلماذا لا يبدأ بالوقوف على اطلال مدينته الاولى او على اطلال شبابه وصباه ، ذاكرا ملاعب طفولته ومعاهد درسه ورفاق لهوه وجده ، هؤلاء الذين يرسم لهم صورة من اجمل ما رسم الشاعر للكائن البشري الممتلىء جمالا وزهوا ومعرفة :

— التتمة على الصفحة ٦٥ —

روجية غارودي

نداء : مشروع الامل

انا نعاني من العيش في عالم لا هدف له .

وما يسمّى سياسة النمو هو سياسة غايتها تشغيل الآلة . حتى ولو كانت آلة بلا فائدة ، او ضارّة ، او مميتة . ان هناك مبدأ غير معترف به : فكل ما هو تقنيا ممكن ، هو ضروري ومرغوب فيه : صنع قنابل ذرية ، السفر الى القمر ، تدمير المستقبل بالنفايات الاشعاعية النشاط في المولدات النووية .

نموّ لماذا ؟ نموّ لمن ؟

— لارباح بعض الافراد بالتلاعب بالجميع وبتكييفهم .

ليس صحيحا ان النمو الاقتصادي يسمح بتجاوز الازمات : فهو يخلقها . انه يقود الى توزيع للسلطة والامتيازات يزداد تفاوتا .

وليس صحيحا كذلك ان بالامكان وقف النموّ . في حين لا يملك مليارات البشر في « العالم الثالث » وملايين البشر في البلدان « الغنية » وسائل حياة انسانية حقا .

ليس الامر وقف النموّ ، بل توجيهه لخدمة تفتح الانسان ، لا انحطاطه .

لقد خلقت السوق الغاب الحيواني من جديد .

وفي هذا الغاب ،يفترس الاقوياء الضعفاء :فالمنشآت الكبرى تسحق الصغرى ، والمعدمون هم تحت رحمة المالكين . والعمالقة الضواري في المجتمعات المتعدّدة الجنسيات يستولون على العالم ويفلتون من كل رقابة للشعوب .

وفي مثل هذا العالم ، ثلاثة مليارات من البشر مستَغلون . ومليارات منهم جائعون .

والاقتصاد افسده تجميع السلطة على حساب غنى الوجود وتفتح الحياة .

والغاب نفسه يسود على المستوى السياسي .

والدعاية نفسها للقوى الكبرى المهيمنة لحساب مرشحين او برامج جاهزة الصنع ، والمصادرة نفسها لمبادرات القاعدة بتفويض للسلطة مستمر ، وكلي ، وممهن ، والتصدّع نفسه بين المتلاعبين والمتلاعب بهم ، بين القادة والمقودين . وليس ثمة في القاعدة من يملك امكانية المشاركة في وضع خطط المستقبل ومراقبة توجيهها او اوالياتها . والقرارات التي يتوقف عليها مصير الجميع ، من بناء المولدات النووية حتى تجارة الاسلحة ، انما تؤخذ خارج كل رقابة من المعنيين .

اما الثقافة والتعليم فوظيفتهما الجوهرية اعادة انتاج هذا الغاب ، بمراتبه ومنافساته ، مقلصا الى ابعد حدّ التأمل في الغايات ، ومستخدما العلوم والتقنيات لصنع سلع والتلاعب بالبشر .

في البلدان الرأسمالية ، الانسان مشوّه بهذا الارتهان الثلاثي للملكية والسلطة والمعرفة .

والبلدان الموصوفة بأنها « اشتراكية » (باستثناء الصين) تبنّت المفهوم الفرداني نفسه للانسان ، والقطع نفسه بين القادة والمقودين .

و« المساعدة المزعومة للعالم الثالث » بدلا من ان تقيم « حوارا حقيقيا بين الحضارات » لتحديدتوجهات المستقبل ، تهدف الى دمج البلدان المستعمَرة سابقا في الطراز الغربي للنموّ الاعمى الذي يحافظ ، بل يفاقم ، الوان اللامساواة بين الطبقات، كما يفاقمها بين الامم .

ولم يؤد امتلاك البترول ومواد اولية اخرى من قبل بلدان غير غربية ، الى اعادة توزيع للاوراق تضع حدا لجميع آثار الاستعمار والعنصرية ، وتتيح نهضة

وازدهارا لثقافات اسيا وافريقيا واميركا اللاتينية ، بل ادى ذلك الى دمج اوثق لبعض البلدان في السوق العالمية والى مبادلة المواد الاولى بالاسلحة التي تستعمل لتعميق التمييزات العنصرية والاستغلالات الطبقية ، وتسهيل الانقلابات العسكرية .

تلك هي الفرص التي فاتت من تاريخ نهاية هذا القرن العشرين ، فلا تطور العلوم والتقنيات ، ولا القضاء على الرأسمالية ، ولا هزائم الاستعمار ادت الى ابراز مشروع جديد للحضارة او معنى جديد للحياة .

اننا نريد ان يكون لحياتنا معنى ، ولتاريخنا هدف:

نريد ان يشارك كل منا في اكتشاف ذلك المعنى، وتحقيق هذا الهدف .

نريد ان يصنع الجميع تاريخ الجميع ، والا يفرضه بعض الافراد .

وليس ممكنا تعديل النظام باصلاحات جزئية .

بل يجب ان تغير مبادئه وبناه تغيرا جذريا .

والمبادىء القاعدية لهذا العالم اللاانساني هي مبادىء « النهضة » ، اي ميلاد الرأسمالية والاستعمار ونزعة انسانية مغلقة .

والقضاء على الرأسمالية بمبدئه نفسه ، يعني محاربة اقتصاد السوق ، اي اقتصاد قائم على ربح بعض الافراد ، واستغلال الجماعات ، وذبح الطبيعة المعتبرة مستودعا ومزبلة ، وحط الانسان ، المستغل كعامل ، والمتلاعب به كمستهلك .

والقضاء على جميع مخلفات الاستعمار ، هو اقامة حوار حقيقي للحضارات مع اللاغربيين لنتعلم من ثقافاتهم علاقات اخرى مع الطبيعة لا تكون فحسب علاقات تقنية ، بل حيوية ، وعلاقات اجتماعية لا تكون كليانية ولا فردانية ، بل جماعية .

وخلق نزعة انسانية منفتحة هي وضع ثقافة لا تكون مصنوعة فحسب من اجوبة الماضي ، بل من اسئلة يطرحها اختراع المستقبل ، ثقافة لا تكون بعد امتياز بعض الافراد وزينتهم ، بل تكون امكانية تفتح انساني للجميع ، ثقافة لا تغلق الانسان على نفسه ، بل تفتحه على ابداع لا نهاية له للمستقبل بابراز ما هو الهي في الانسان ابرازا شعريا ورسوليا .

ان المهمة الاولى هي اعادة صنع النسيج الاجتماعي الذي فتتته الراسمالية الكاسرة ، والاستعمار المدمر للثقافات ، والفردانية الخالية من المحبة .

واعادة صنع النسيج الاجتماعي هي ملء الفجوة بين الافراد المفتتين والدول الكلية القدرة لمجتمعاتنا التي لا تقوم فيها الا علاقات عمودية من التسلسل وعلاقات افقية من المنافسة .

اعادة صنع النسيج الاجتماعي هي ان نخلق ، انطلاقا من مبادرات القاعدة ، وعلى جميع مستويات الاقتصاد والسياسة والثقافة ، جماعات مسؤولة تأخذ على عاتقها حياتها الخاصة لتحدد من جديد الاهداف الانسانية لكل نشاط اجتماعي ومناهجه للتنظيم والتسيير .

على صعيد العمل ، في المنشآت ، والجامعات ، والادارات : « مجالس للتسيير الذاتي ، مهمتها ان تصبح مسؤولة عن تعيين القادة ، وتحديد طرائق العمل واشكال النظام ، حتى لا تتقرر اهداف عمل شعب برمته « من فوق » على يد مالكين او تكنوقراطيين او ديوانيين .

على صعيد الاستهلاك ، « جماعات قاعدية » اي تنظيمات لا تكون خاصة ولا حكومية ، بل مشتركة ، يديرها المستعملون انفسهم ، لمراقبة الاسعار وتنظيمها ، وتسيير النقليات والتأمينات والايجارات ، حتى تبرز الحاجات عن غير طريق فوضى السوق والتلاعب الدعاوي للمنتجين وقرارات ديوانية ممركزة واستبدادية .

على صعيد الثقافة ، « مراكز للمبادرة » من اجل التوجيه ورقابة المدارس والجماعات والتلفزيون والراديو ، والصحافة والنشر ، والمسرح والرياضة ، والمستشفيات والصحة والمنشآت الصيدلية ، وبيوت الشباب والثقافة ، حتى تبرز هذه الثورة الثقافية مشروعا جديدا للحضارة .

والجهاز المركزي ، المكلف بتحديد الاختيارات الكبرى والاولويات في مادة التخطيط والتشريع الاجتماعي ، والعلاقات الخارجية ، والتربية والثقافة ، لا يمكن ان ينبثق الا عن جماعات العمل هذه .

وهكذا فان النظام البرلماني القديم القائم على التمثيل بواسطة « الدوائر الاقليمية » — وهو تركة المجتمعات الزراعية والذي يقود اليوم الى تفتيت شعب ما الى مواطنين مجردين — يجب ان يستبدل بتمثيل « للنشاطات الاجتماعية » في « مؤتمر لمجالس العمال اليدويين والثقافيين » .

على هذا النحو ، يمكن ان يولد مفهوم جديد للسياسة ، لا يكون بعد تقنية الوصول الى السلطة والمحافظة على السلطة بالتلاعب او بقمع الجموع ، بل يكون ، انطلاقا من القاعدة ، تأملا في غايات المجتمع وتنظيما للمجتمع لبلوغ هذه الغايات .

وهذا المفهوم هو نقيض الفوضى : فهو لا ينهض على مبادىء فردانية ، بل ينهض على المشروع الجماعي لاعادة صنع النسيج الاجتماعي .

– انه لا ينكر ضرورة « تفويض السلطة » ، ولكنه يستبعد فقط التفويض المستمر والاجمالي والممهن الذي يقود دون ريب الى هيمنة فريق قائد مقطوع عن الشعب ، يتحدث ويتصرف باسم الشعب من غير ان يستشيره ، في الحكومات والبرلمانات والاحزاب .

ان اي جهاز مركزي لا يستطيع ان يضطلع الا بدور التنسيق والاعلام والتثقيف ، وليس بدور القائد .

ولتجنب الاشكال المخادعة والضاغطة لتفويض السلطة ، اي الارتهان السياسي ، يحسن انشاء :

– دوران للمثلين ، يمنع الانتخاب لاكثر من دورتين .

– تفويض آمر مزود بروزنامة تنفيذ بالنسبة لاي فرد يسعى الى منصب تمثيلي ، وامكانية فسخ آلية اذا لم تنفذ التعهدات المقطوعة .

– اعلام مستمر يقوم على تعددية الاختيارات : فهناك على كل صعيد او في كل برنامج بضعة فرضيات تقدم ، مع النتائج المحددة الناتجة عن كل فرضية .

– تثقيف مستمر ، لا يؤمن فقط الدوران السياسي ، بل يؤمن الدوران الاجتماعي : شهر من التدريب الثقافي كل عام لكل عامل او مستخدم ، والزام كل طالب او مدرس بان يعمل دوريا في المنشأة او في مركز البحث ، حتى لا يكون هناك عمال يعملون في كل الاوقات ، ولا طلاب ولا معلمون ولا قادة يعملون في كل الاوقات .

أيقال ان هذا يعني طلب تغيير عميق لاسلوب حياتنا ؟ بلا ادنى شك : انه اتهام جذري للفردانية والانانية اللتين هما ، منذ خمسة قرون ، مبدأ مجتمعاتنا الغربية .

ولكن الرهان هو بقاء الكرة الارضية ، وبقاء كل واحد منا .

ان الثورة الوحيدة التي لا بد منها اليوم ، لكي تستمر المغامرة الانسانية استمرارا واحدا ، هي بهذا الثمن .

اننا لن نغيّر العالم من غير ان نغير انفسنا ، في الوقت نفسه وبالحركة نفسها .

كيف السبيل الى بلوغ مثل هذه الاهداف ؟ كيف السبيل الى ابراز مثل هذا المشروع الحضاري وتحقيقه ؟

من المهم الا نتكل على آخرين ، على مستوى الوسائل وعلى مستوى الغايات ، لنصنع تاريخنا الخاص .

ان التحديد الذاتي للغايات ، والتسيير الذاتي للوسائل ، في مجموع الحياة الاجتماعية ، لا يمكن ان يتحققا ما دامت قائمة الملكية الخاصة للوسائل الكبرى للانتاج والنقل والتسليف والتبادل . ولا يمكن ان يتحققا كذلك اذا اصبحت هذه الملكية حكومية ، منقولة الى فريق من التقنوقراطيين والديوانيين .

ان الاشتراكية ذات التسيير الذاتي لا تتوافق مع رأسمالية الغرب ولا مع دولانية الشرق

والممكن الوحيد ، في الساعة الراهنة ، هو التسيير الذاتي « للصراعات » .

وتجربة اضرابات عدة من طراز جديد تثبت ان هذا ممكن .

والتسيير الذاتي للصراعات هو نقيض الوهم البرلماني (اعطونا اصواتكم نمنحكم الاشتراكية !)

ونقيض الوهم الحزبي (« انتسبوا وردّدوا شعاراتنا ، وسنقوم بالباقي ») .

والتسيير الذاتي للصراعات هو تطوير مبادرات القاعدة ، في مكان العمل ، حتى لا نكتفي بالصراعات الدفاعية الضرورية وحدها ، بل لنشكل المجالس التي تهيىء السلطات – المضادة لادارة المنشآت وتسييرها ، ولنلخق في جميع قطاعات الحياة الاجتماعية ، جماعات قاعدية على درجات مختلفة من الدمج .

ولا يمكن للاشتراكية ان تتحقق بالمفرّق ، لان الاواليات التي تنظّم النظام يمكن ان تخمد التجارب المنفردة . ولكن يجب ان نكون مستعدين ، من حيث وعي الاهداف ، وتنظيم السلطات – المضادة ، لان نأخذ بيدنا مصيرنا الخاص ، في حالة ازمة عميقة وتحريك شعب برمّته .

في عام ١٩٦٨ ، لم يكن أحد مستعدا لفتح منظور الاشتراكية تقوم على التسيير الذاتي ، ولا لتشغيل المنشآت والادارات والثقافة بقواعد اخرى غير قواعد ارباب العمل والدولة .

اما المسألة اليوم ، فهي ان نتحرك بحيث لا نؤخذ مرة اخرى على حين غرة ، في « ظروف » مماثلة (ليس هناك الا شك قليل في الا تتكرّر)

ان الاختيارات التي تفرضها او تقترحها علينا « الدول » او الاحزاب ليست على مستوى الازمة ولا هي تستطيع حلها . ان هذه الاختيارات مصنوعة سلفا من الخارج ، من **فوق** .

لقد بلغت الشعوب رشدها . واصبح مما لا يحتمل اكثر فاكثر ان يقرر تاريخها وحياتها وان يصنعا على ايد غير أيديها .

ومن الضروري اليوم ان يشارك كل فرد في القرارات الرئيسية التي يتوقف عليها مصيره ، بغير اقتراع وهميّ كل اربع سنوات او سبع .

ومن الممكن خلق ثقافة وتهذيب يساعدان كل انسان ، وكل البشر ، على ان يكونوا مبدعي المستقبل .

ان من الممكن تغيير الحياة .

ونحن نستطيع ، منذ الآن ، البدء بتحطيم منطق النظام الذي يحيلنا الى العجز حين يعزلنا .

والخطوة الاولى : هي الانطلاق لملاقاة الآخر – بقبول

اختلافه ـ للمشاركة في خلق جماعات العمل والاستهلاك والثقافة هذه .

فلنخلق ، في وجه غاب المنافسات والمراتب الخانقة ، هذه العلاقة الانسانية الجديدة ، هذا النسيج الاجتماعي الجديد ، وستتراجع السلطة الخارجية .

لنكن معا مسؤولين ، والا كنا مفقودين .

فمعكم ، وبكم ، وحيث تكونون ، يمكن للمستقبل والامل ان يبدأ اليوم بالتحقق .

ان هذا الكتاب مشروع . اي بدء عمل . وهو لا يزعم انه يحمل وصفة ـ معجزة لصنع مجتمع المستقبل .

انه يدعو الى تأمل اساسي في مبادىء مجتمعنا نفسها ، وفي الاسباب التي من اجلها قادتنا هذه المبادىء الى طريق مسدود .

وهذا المشروع ـ المضاد ـ مشروع الامل ـ قابل للتحقيق . انه ممكن بين ممكنات اخرى . وهو يطمع في دعوة كل فريق وكل فرد الى اضافة اسهامه النقدي والمبدع في وضع مشروع جديد للحضارة وفي تحقيقه .

والمسألة التي من اجلها نطلب معونتكم هي مسألة التنسيق والاخصاب المتبادل للمبادرات والتجارب .

هل تحسون مثلنا الحاجة الى مركز للاتصال والتبادل ، والى مجلة او على الاقل نشرة تسمح باطلاع كل شخص على افكار جميع الآخرين وانجازاتهم ؟ هل تحسون مثلنا الحاجة الى ارهاف الحس لدى طبقات متنامية من الرأي العام حول ضرورة ان يشعر كل فرد شخصيا بانه مسؤول عن التغيير التاريخي الذي لا بد من احداثه وعن ضرورة المشاركة في ذلك ؟

هل تريدون ان تخلقوا مع ألوف الآخرين ، الذين تتنادى أيديهم للقاء ، الخلايا الحية الاولى للنسيج الاجتماعي الجديد ؟..

اذا كنتم تريدون ذلك ، فان بامكاننا ان نحقق معا ، خارج التخطيطات التقليدية ، هذا التجمع للطاقات الجديدة .

ـ اية مبادرات خلاقة تقترحون ؟
ـ ما هي امكاناتكم للعمل الشخصي في هذه الحركة ؟
ـ اي دعم مالي يمكن ان تضيفه الى الاقلاع ؟

ان المشروع هو بين ايديكم . ولا يستطيع احد منا ، اذا لم يحمل تعهده الشخصي ، ان يتهم آخر بالاخفاق .

أجل ، معكم ، وبكم . وحيث تكونون ، يمكن للمستقبل والامل ان يبدأ اليوم بالتحقق . (*)

(*) هذا الفصل هو خاتمة كتاب « مشروع الامل » الذي يصدر هذا الشهر عن دار «الآداب» ، وقد ترجمه عن الفرنسية الدكتور سهيل ادريس .

صاحب خليل ابراهيم

الضفاف

خذيني .. خذي اسمي .. شفاهي
على عتبة الريح عبر الممرات
ليلي يمر على النخل يرسم بالمستحيل حياتي

* * *

هتفت : أجيء وقلت :
سأحفر فوق جفوني بدمعي اخضرار النهار
تفتت ستائرنا الغافيه
على كفي المتعرق رفت طيوف
ولو .. آه .. لو تعرفين ؟
ولكن حلم الضفاف توارى على غربة نازفه
وكنت ربيعا تكابر فيه الفصول
أيا امرأة ذابت الكلمات بصدر الوسادة
فما أخضر دمع
ولا رقصت في الدماء ضفيره
اشم عطور المساء
تأوه وهج الغيوم
وكنت على ضفة النهر تحت الرذاذ
ألم المنى .. قطرة .. قطرة
ويعبر خوف الحروف شفاهي
يمر على باب داري
يواري شحوب اللقاء

*

ويكبر خوف الشفاه
ترى أيعود
وأمسح عن وجهه اثرا للغبار
ألم له في سلال الرموش نجوم

*

ترى أ .. يجيء على غيمة للصباح
تطرز آفاقنا
لتنمو زهور الحديقه
أذوب بضحكته
لتكبر فرحتنا في دمي
ترف جناحين
نطير .. نطير
أشد الضفيرة في جنحه
ونعبر فوق النجوم
واكتب في دفتري حرف حبي
أخط بجفني اخضرار اللقاء

بغداد

محمد علي الرباوي

قصائد في زمن الرعب

١ ــ الكـأس :

يا أيتها الكأس المحرقة العطشى
ها مملكتي العطشى اشرعت الابواب
ومرافىء ذاتي تستقطب
عنقود الفردوس وعنقود الريح ،
هلا عدت الى سمواتي راضية مرضية
بيروت تموت / شوارعها يحرقها جلدي الاحمر
وعرائس زمزم فوق التل الاكبر
لوحن مرارا بالأيدي الخمس ..
آه يا أيتها النفس
هل يقبل ذاك الحجر الاسود هذا العاشق ذره ؟

٢ ــ دعاء ذاتي :

رب اجعل هذا الجسد المتوتر في مأمن
من كل رياح الزمن الحاضر والآتي
وارزق هذا القلب سلالا من نورك
وقني صمت النهر العطشان
وتلال الضوء المنشور على
حيطان شوارع وجدة
آمين .

٣ ــ دعاء موضوعي :

رب اجعل هذا الوطن المتوهج في مأمن
من كل رياح الزمن الحاضر والآتي
وارزق هذا الشعب سلالا من خيرات
وقه ثرثرة الامس الآسن .
آمين .

٤ ــ العطشان :

بي عطش للسكين ، فمن يرشق هذا الجسد المقتول ، فلا الرحلات السبع تحول جدولها اشطان دماء ، لا الجب اسطاع منازلتي بالاصداء ، ولا التنين أراني كأس الخوف الاحمر حين أغار على ظلي المتد هنا من وجدة حتى بيروت .
يا سياف القرية ، ها رأسي ، نفذ حكم الظمأ الازرق ، وأرح ظلي من جسدي المكبوت .
ألِفَ المجنون هجير البين ، تعلم في البيداء لفات الموت ، ولكن حتى م تظل الاكفان هنا تتوسخ في هذا التابوت .
بي عطش للسكين فمن يرشق هذا الجسد المقتول ومن يلقيه بوادي الظلمات ويسكنه بطن الحوت ؟
آه ــ من يسكن هذا الجسد المتورم بطن الحوت ؟

٥ ــ تطاول :

تبت يدا هذا الزمان
تطاولت غاباته ..
ونازلتني موهنا
وها اخاف اليوم ان
يجفل من نزالها
هذا الحصان .

٦ ــ الوجهان :

ألا أيها التل ها قد علا من بعيد غبار كثيف ، وانت تموت مرارا .. وتحيا مرارا ــ وخيل الغزاة تدك محياك في الموت او في الحياة وها انقشع الآن هذا الغبار سمعناك تحت الغبار الملولب تسقط ،لكن سقطت على كوكب في اعالي السماء التي استقبلتك

بأرز جديد :

« جسدي يغلي كالنهر الصامت ، يرفضني تلا سجدت لسنابليه غابات الصفصاف ، توالد منه الارياح الزرق مرارا . كانت تلك الارياح تعلمني كيف أبارز نفسي في صحوي او في مطري . كانت تلك الارياح تشق صخوري ، تجري فوقي نهرا فاذا حدقت ــ صباحا ــ في النهر رأيت على صفحات مراياه وجهين ، أقول الوجه الاول وجهي والوجه الثاني وجهي ، وانا أعلم اني في البدء أتيت بوجه لا وجهين ،أصارع خوفي ، فأموت وكم مت مرارا » .
رصاص البنادق أخطأ وجهك ، لكن وجهي تعرض للطلقات ، فمت مرارا وعشت مرارا وحين سقطت سقطت على الارض فاستقبلتني ــ وبي ظمأ لا يُحد لها ــ برصاص جديد .

وجدة ــ المغرب

ممدوح حسن لطفي

الموت على مهل

- ١ -

منذ ساعة أمر الخادم ان يعد له حقيبته ، وحتى الان لم يكن انتهى من مهمته بعد ..
أخذ يتسلى بترتيب بعض الصفحات امامه .. من حين لآخر يعلو صوته ليستنهض همة خادمه :
ـ هل فرغت ؟
ويجيبه بانه فرغ او كاد ..
.. لا بد ان يلحق بقطار هذا المساء الى هناك .. فقد انهى كل ارتباطاته هنا ونوى الرحيل ..

- ٢ -

استفزته الحقيبة الفارغة .. الرجل يتناوم من احد الاركان .. صفوف الكتب في مكانها .. أكوام الثياب بعضها لم يمس بعد ..
البعض الآخر متناثر في فوضى في شتى الانحاء .. انه يحتاج لوقت ليس بالقصير لحزم حاجياته ..
.. بدأ يفهم الخطابات التي تصله يوما بعد يوم... تحكي له ادق اسراره . تهز .. طمأنينته .. تروي اتفه تفصيلات حياته اليومية :
« افطرت بالامس زيتونا .. أليس كذلك ؟ ! »
« انك لا تأكل لحما بالقدر الكافي .. »
« لا تترك مذكراتك في درج مفتوح .. احكم الغلق عليها »
كلما زادت درجة تفاهة سطور الرسالة ، يزداد خوفه ..
لا بد ان هذا البليد يتآمر معهم .. فمن يعرف هذه الامور غيره ؟
ولكن ها هو يزمع السفر ويترك خلفه متاعبه ..

- ٣ -

اتخذ مكانه على الطريق العام ، متكئا على جدار الكشك المتداعي .. عليه ان يستوقف احدى عربات الاجرة لنقله الى المحطة ..
آن له اخيرا ان يفر الى بعيد .. يبدأ هناك من جديد .. يرتاح من مطارديه .. ليس أشق على نفسه من السفر .. لكنه البديل الوحيد لما يتجشمه هنا ..
كلاب الصيد تتبعه اينما حل وحيثما استكن ..وليس هذا اسوأ ما في الحكاية ، فالمؤلم انها تراه ولا يراها .. يكاد يظن انها بمستطيعة ان تتسلل الى مسارب دمه ودروب جسده دون ان يقدر على الحراك او ينتوي المقاومة ...

راح يجدهم في كل ركن .. يباغتونه في الاماكن المظلمة ... يتمثلهم في وجوه القوادين .. تحت الاسرة في علب الليل ، كثيرا وفي اثناء ممارسة اللذة .. وفي عنفوان المداعبات .. ينتفض .. يخلص نفسه من احضان رفيقته .. يهب يحدق تحت المرقد يبحث عنهم .. يعود مغموما وقد هبط شوقه وتضاءلت رغبته .. ويعاود استنفار غريزته المجهضة في غيظ وغل ..
في اثناء اغفائه .. يتسللون الى احلامه يئدونها ثم يختفون ويتركون ثغرة تنفذ منها الكوابيس بسهولة ..
اذا فكر في التريض سيرا على الاقدام ..وعندما يستبدل ملابسه .. يتحسس جيوبه .. يجد رقع الورق المشئوم مطبوعا عليها : لا تخرج الليلة فالشر يستطير .. حين يريد ان ينتقي قميصا معينا .. يسطرون له :

لا تفعل هذا .. اياك وارتداءه ..
تبرز له الوريقات من تحت وسادته او على البساط بغير انذار .. الكلمات التي يجلل السواد احرفها توقظ ريبته .. اما جهله بالطريقة التي تصله بها فيؤجج مواجعه .. قد يطاوعهم وقد يصمم على المضي في قراره .. يهتفون في عقله بالفاظهم فتدوي في اعماقه .. احيانا ينهزم امامهم مباشرة .. مرات اخرى يستمر معاندا يمعنون هم الآخرين .. يتشبث متابعا .. يصرخون من اعمق اعماقه في وعيد ..وفي تلك المرات التي لا يلتفت الى ما يقولون ولا يوليهم

اهتمامـا .. كـان يجد نفسه في النهاية وقد غاضت متعته وشحبت .. لا يردعهم عن غيهم وازع حتى يثقوا انهم افقدوه هدفه وطلبتـه ..

ـ ٤ ـ

عربة الاجرة يئن محركها ..

... في العطلات كانت البطاقات تزداد عددا .. تومىء لـه انـي اتجه بصره .. تنتشر اينما ذهب ..

يجمع البطاقات .. يحاول ان يوفق بينها ليصل الـى الحقيقـة .. او يرتبهـا ليثب الى صيغـة ما .. دائمـا يتهاوى مجهدا والنتيجة في غير صالحه ..وفي النهايـة يجد انه قضى جل وقته في لعبـة خاسرة .. ويطير يوم العطلـة .. في الايام الاخرى حين يذهب للعمل .. رقع الورق تظهـر ايضا ولكن له وحـده .. ويبعثر الساعات في جمعها .. والاخرون لا يرون مـا يـرى .. يتهامسون .. ينظرون اليه في عجب ..

مرة اطلعهم على واحدة .. ادعوا عدم القدرة على ابصارهـا .. مع ان لهم عيون الحدأ .. وكاد ان ينتهي الى المصح لولا اقلاعه عن اخبارهـــم بـاي شيء وبعدهـا ..

في الفترات الاخيرة اضطر ان يحتال بوسيلة او بأخرى ليلتقطهـا دون ان يلمحوه ..

من قبل اقسم الا يتناولها . اراد ان يفي بكلمته وجرب .. كل مرة يمر شعاع بصره على احداها ، تنهار ارادتـه .. يتبخر من عقله كل شيء .. لا يعود يذكر الا ان يحصل عليهـا .. مرات اخرى تعهد لنفسه الا يقرأها .. يكفي ان يجمعها ثم يمزقها ما دام لا يستطيع ان يتجاهلها .. يكور الرقعة .. وحين يهم بالتخلص منها ينبعث من داخلـه صوت :

ماذا يضير لو قرأتها ؟ لم لا تصدق تحذيراتهم ؟ ويقرأها .. فتهرول نحوه المخاوف من مختلف المناحي..

.. هربت عيناه الى الخارج .. خامره الظـن ان العربة سارت اكثر ممـا ينبغي .. لا بد ان يصل الـى المحط الآن او قبل دقائق . العربة تسلك طريقا غيـــر الطريق المألوف .. ايقـن انه ليس علـى الطريـــق الصحيـح ..:

ـ لقد اخطأت الطريـق .

ـ اعتقد ان موقفنا سليم .

ـ ابدا .. عد الى عكس الاتجاه .

ـ قد نصل من هنا ايضا .

زمجـر :

ـ وأنا قد يفوتني قطار المساء .. عد !

أيتعمد السائق ذلك .. هل يكـون احدهم .. ايشترك معهم .. ولم لا ؟ فالجميع تتألبون عليه .. الكل هنـا ضد واحد .. هل ينجحون في اعاقته .. فهـم لن يدعوه يفر منهـم هكذا .. لم لا ينتصر لنفسه عليهم . انه فرذ وهم المدينة بأسرها .. أيكسب الواحد الكـل ؟ .. هم كل شيء .. هو يتيقن من وجودهم . ولا يتأكد بالضبط من هم .. أين .. لماذا يضيقون عليه الخناق ؟. انه يموت على مهـل ..

هم على المقاعد المجاورة في دور العرض .. فـي ثيـاب الخدم في المطاعم .. ينبثون في المراحيض العامة .. يعدون عليه الحركات ويحصون السكنات .. يتخفون في هيئـة الشحاذين .. يحدقون فيه ... يبعثـون بتقارير منتظمـة عنـه ..

.. يراهم في حوانيت القصابين والبقالين .. يتظاهرون بأنهم يبتاعون او يدعون انهم يبيعون .. في الكواء الذي يتعامل معه .. كم فاجأه يسترق السمـع خلف المدخل قبل ان يطرقـه ..

في بعض باعة الجرائد الصباحية .. وكل باعـة الصحف المسائية ..

في ملابس جامعي القمامة حين يأتون فـــي الصباح .. يتكومون داخل صفائح القمامـة وعرباتها .. يتبادلون عنه الاسرار والاخبار ..

يزاحمونه في المتاجر العامة .. يحتكون بـه .. يستدرجونه للعراك في الازقة الجانبية .. ينفردون به .. يباشرونه واحدا اثر الاخر .. اذا فرغوا بـدأوا يكيلون لـه أقذع السباب .. يغادرونه .. اذا التقـى بهم بعد ذلك لا يبدو عليهم انهم عرفوه قبلا ..

.. هم في الطرق .. خلف الاحجار .. يختبئون وراءجذوع الاشجار على الجانبين في الظلام ..يشيرون لبعضهم البعض .. يتهامسون عليـه اذا اقبـل .. يتآمرون عليه في خفوت لو مضى ..

يلاقونه في المواخير التـي اعتـاد ولوجها .. يرشون المومسات ليسهلن لهم الدخول والخـروج لمراقبته .. يشاركونه منضدته .. يزدردون طعامه .. يقاسمونه الكؤوس .. ومتى حـان وقت الاياب ، يتبخرون من حوله واحدا تلو الاخر .. ويجبرونه على دفع النفقات .. وكل ليلة تختفي وجوه البارحة وتتجدد الوجـوه بلا نهايـة ..

ـ ٥ ـ

مؤخرة القاطرة على البعد .. ايقاع خطواته علـى الدعامـات الخشبية للقضبان .. ثقل الحقيبة يبطىء من سرعتـه .. عليه ان يفعل شيئا .. العربة الاخيرة تكاد تختفي تمامـا .. الصفير يأتيه واهنا .. ترك اصابعـه تتراخى .. سقطت الحقيبة ..

.. اتسعت خطاه .. تلاحقت .. انطلق يعدو ..

القاهرة

بابلو نيرودا

اسبانيا في القلب

نشيد لأمجاد الشعب المحارب (١٩٣٦-١٩٣٧)

القصيدة الخالدة التي كتبها نيرودا خلال الحرب الاهلية الاسبانيـــة

ترجمها عن الاسبانيـة : ماهر البطوطي

ابتهالات

لكي نبـدأ ،
لكي تتوج الوردة الطاهرة المشطورة
لكي يتوج منبع السماء والهواء والارض ،
ارادة نشيد لـه دوي المتفجرات
رغبة نشيد رحيب ، رغبة معدن
يحصد حروبا ويعرّي دمـاء .
اسبانيـا : بللور الكئوس ،
ليست هي تاجا للاكاليل
بل حجر مهروس ، سنابل رقيقة منصرعة
جلد وحيوان تتقد فيهما النيران .
غدا واليـوم
يغشى خطواتك الصمت
يغشاها روع الآمـال
كالهواء المحيط بكـل شيء
يغشاها نور ، قمـر ،
قمر مستهلك ، قمر يتنقل من يد ليد
ومن ناقوس الى ناقوس !
يا وطنـي الام ،
يا حفنة الشوفان التي تيبّست
يا كوكب الابطال الاعجف الدامي !

✶

غارات القنابـل :

من هـم ؟
على الطرقات ، من هـم ؟
من ، مـن ؟
في الظلال ، في الدماء ، من ؟
في الوميض ، من ، مـن ؟
ويسقط رماد ، ويسقط حديد
وحجارة وموت ونواح ولهيب .
من ، من ، آه يا أماه ، من ، الى أين ؟

✶

لعنـة :

ايها الوطن المشقوق
اني لأقسم انك في وسط رمـادك
سوف تولد من جديد كزهرة المياه الابدية
اني لأقسم انه سيخرج من فمك الى الهواء الطلق
نوّارات الخبز ، والشوكة المسفوحة المتفتحة .
ملعونون بكـل لسان
ملعونـون ، ملعونـون ،
من هبطوا على ساحتك الارضية
بالبلطـة والافعى .
ملعونون بكـل لسان
من ترصدوا ذلك اليـوم
ليفتحوا باب الدار امام الغزاة وقطاع الطرق :
اي شيء فعلتـم ؟
هاتوا ، هاتوا المصباح
لتروا الارض متشربة بالدماء
لتروا العظام السوداء وقد التهمتها النيران
وثوب اسبانيا وقد اخترمه الرصاص .

✶

اسبانيا فقيرة بسبب الاثرياء :

ملعونون

من لم تبصر عيونهم في يوم من الايام
ملعونون ، اعمياء ملعونون
من لم يقدموا لوطنهم الجليـل
الخبز الذي يحتاجه وانما الدموع .
ملعونة هي البزات العسكرية الملطخة
وسترات الكهنـة ،
كلاب المغارات والاضرحـة
العفنين النتنين .
كان الفقر لاسبانيا
جوادا مفعمـا بالدخان
احجارا تتساقط من نبع المحن
أراضي بكرا من الفلال
أقبية سريـة من الزرقة والقصدير
من البيضيات والابواب
من الاقواس المغلقـة
من الاعماق التي تشتاق الى الولادة
وكل شيء يحرسه حراس مثلثون
في أيديهم البنـادق
وقساوسة لهم لون الفار المذعور
واذناب الملك ذي الكفل العريض .
اسبانيـا الطاهرة
بلد اشجار التفاح والصنوبر
كان يمنعك سادتك الكسالى :
من البذر ، من استكشاف المناجم
من امتطاء الابقـار
ويرغمونك على الاغراق في الفكر كما القبور
وعلى أداء زيارة سنويـة
الى نصب البحار كريستوفر التذكاري (١)
وعلى صهل خطب مع قرود وافدة من امريكا .
هم مثلهم في « المكانة الاجتماعية » وفي العفونة .
ليس لكم ان تشيدوا المدارس
ولا ان تشقوا قشرة الارض بالمحراث
ولا ان تعمروا مخازن الفلال بوفير الحنطة :
بل صلّوا ، صلوا ايتها الحيوانات
لان الها ذا كفل عريض ككفل الملك
ينتظركم ، هنـاك ،
« هناك حيث ستتناولون الحساء ، يا اخوتي » .

✱

النقاليـد :

وفي ليالي اسبانيا ، عبر البساتين العتيقة
كانت التقاليد تتمشـى
مغطاة بالمخاط الميـت
تتصبب بالصديد وبالطاعـون

لها ذيل ينفث الضباب ،
شبحـا ، وخيـالا ،
تلتحف برداء الربـو
وفجوات من السترات الدامية
وكـان وجهها
ذو العيون العميقـة المحتجزة
ثعابين خضراء تلتهم القبور
وفمها الخالي من الاضراس
يطحـن كـل ليلـة
القمحة التي لم تولد بعـد
والمعدن الخفي .
كانت تتنزه وتاجها ذو الخراشف الخضراء
ينثر عظامـا بهمـاء للموتى وللحناجر .

✱

مدريـد ١٩٣٦ : (٢)

اي مدريد ، الوحيدة المهيبة
لقد فاجأك يوليو في وسط افراحك
ذات اقراص الشهد المتواضعة .
صافيا كان دربـك
صافيا كان حلمك .
وحطم فواق اسود من الجنرالات
حطمت موجة من السترات الكهنوتية الغاضبة
مياهها الواحلة وانهار بصاقها
بين ركبتيـك .

✱

ودافعت عن نفسك اي مدريد
وما زالت عيناك جريحتين من النوم
بالبنادق ، بالاحجار
اي مدريد التي جرحت من فورها .
كنت تجرين في وسط الطرقات
مخلفة وراءك آثارا من دمائك الطاهرة
تجمعين وتنادين بصوت محيطي
بوجه قد تبدل الى الأبد
بفعل ضياء الدمـاء
كالجبل الآخذ بالثأر
كنجمة السكاكين التي تَصفُر .

✱

وحين اقتحم حسامك المشتعل باللهيب
الثكنات المظلمـة
وغرف المقدسات بالكنائس
تلك التي دبجت استار الخيانة
لم يكـن غير صمت الفجر

لم يكن غير خطوات راياتك
وقطرة كريمة من الدم في ابتسامتك .

*

اشرح بعض الاشياء :
وستسألون : وأين هي الزنابق ؟
اين هي الميتافيزيقا المغطاة بشقائق النعمان ؟
أيـن هي الامطـار
التي كثيرا مـا تضرب كلمـاتها
فتملأها بالثقوب وبالاطيار ؟

*

لسوف اقص عليكم كل مـا جرى لي .
لقد كنت اعيش
في حي من احياء مدريـد
يزخر بالاجراس ، بالساعات ، بالاشجار .

*

من هنـاك
كانت تستبيـن صفحة قشتالة الجافة
كأنمـا هي محيط من الجلد .
كان بيتي يدعى بيت الزهـور
فمن كل ناحيـة فيـه
تتفجـر زهرات الجيرانيوم .
كان منزلا جميـلا
تمرح فيه الكلاب الاليفـة والاطفال .
اتذكـر اي راؤول ؟
اتذكـر اي رافاييل ؟
اتذكـر اي فديريكـو
وانت تحت الثرى
اتذكر بيتي ذا الشرفات
حيث كان نور يونيو يغرق الزهور في فمك ؟

*

واأخاه ، واأخاه !
كل شيء كان موجا من الاصوات :
ملح البضائـع
أكوام الخبز النابض
تلك هي اسواق الجوار في حي «ارجوييى»
بتمثاله الذي يقوم كالمحبرة الشاحبة وسط الاسماك
بينما الزيت يصل الى ملاعقه
ونبض عميق من الاقدام والايادي
يملأ الطرقات ،
المترو ، اللترات ، شذى الحياة الحاد
الاسماك المكدسة ،
نسيج سقف ذات شمس باردة
حيث يصاب السهم بالكلل ،
عاج البطاطس المحموم الرقيق

وحبات الطماطم تتكاثر حتى تصل الى البحر
وذات صباح ، اشتعل كل شيء
وذات صبـاح
خرجت النيران من الارض
تلتهـم الكائنـات .
ومنذ يومها النيـران ،
ومنذ يومهـا الدماء .

*

قطاع طرق بصحبة الطائرات والغزاة
قطاع طرق بصحبة الخواتيم والدوقات
قطاع طرق بصحبة القسس يرسمون علامة الصليب
آتين عبر السماء لكي يقتلوا الاطفال .
وعبر الطرقـات
كانت دمـاء الاطفال تسيل
تسيل في بساطة تتناسب مع دم الاطفال .

*

ذئاب تتبرأ منهـا الذئاب
احجار يأنف النبات السام من النفاذ فيها
افاع تزدريهـا الافاعي .

*

لقد رايت في مواجهتكـم
دماء اسبانيـا تهب
لكـي تغرق نفسها في موجة واحدة
من العزة ومن الخناجر !

*

ايهـا الجنرالات
ايهـا الخونـة
انظروا الى بيتـي الميت
انظروا الى اسبانيـا المتحطمة .
غير انه من كل بيت ميت
يخرج معدن ملتهب
بدلا من الزهـور
ومن كل جريمة تولد رصاصات
تخرج اسبانيـا
ومن كل طفل ميـت
تخرج بندقية ذات عيون
ومن كل جريمة تولد رصاصات
سوف تستقر يوما في مكمن الفؤاد منكم .

*

لسوف تتساءلون
لمـاذا لا تحدثنـا اشعاره
عـن الاحلام ، عن الاوراق ،
عن البراكين الفخمة في ارض موطنه ؟

*

تعالوا لتروا الدمـاء تغطي الطرقات
تعالوا لتروا الدمـاء
تغطي الطرقـــات !

✶

نشيد الى امهات المحاربين الموتى :

كلا ، لم يموتــوا !
انهم وسط البارود
واقفون على اقدامهم

✶

لقد توحدت ظلالهم الطاهرة
في ذاك المرج الذي له لون النحاس
مثل ستارة من الرياح المصفحة
مثل حاجز متلون بالغضب
مثل صدر السماء الخفي ذاته .

✶

ايتها الامهـات !
ها هم واقفون على اقدامهم وسط القمح
شامخون مثل اعماق الظهيرة
يستشرفون البطاح الشاسعة !
انهم جماعة اجراس ذات صوت اسود
تقرع اصداء الانتصار
عبر اجساد من الصلب المفتال .
يا اخواتي اللائي تماثلن الغبار المتساقط
محطومـات الفؤاد
فلتضعن ايمانكــن في امواتكــن !
فهم ليسوا فقط جذورا
تحت الصخور المخضبة بالدم
ليسوا فقط عظامـا مسكينة ساقطـة
تعمل الى الابد تحت الثـرى
بل ما زالت افواههم تلتهم البارود الجاف
وتهاجم كأنهـا محيط من حديد
وما زالت قبضاتهم المرفوعة عاليا تتعارض والموت.

✶

لانه من بين ذلك الحشد من الاجساد
تنهض حياة خفيـة
امهات ، رايـات ، ابنـاء !
جسد واحد حي مثل الحيـاة
ووجه من العيون المزوقة يسهر على الظلمة
حاملا سيفا مفعما بالآمال الارضية !

✶

انزعن عنكــن ثياب الحداد
ووحدن من دموعكــن
حتى تنصهـر المعادن
فنحـن نقرع هناك اناء الليـل واطراف النهار
ندوس هناك آناء الليل واطراف النهار
نبصق هناك آناء الليل واطراف النهار
الى ان تتهاوى ابواب الكراهية !

✶

انا لا انسى ما لحق يكن من مصائب
واعرف ابناءكــن
فاذا كنت مزهوا بموتكــن
فانا ايضا مزهو بحياتكــن .
ضحكاتكــن
تلتمع داخل « الورش » الصماء
وخطواتكــن في المتـرو
ترن الى جانبي كل يوم .
ومع برتقال المشرق
ومع شبكـات الجنـوب
ومع احبار المطابـع
وفوق اسمنت البنايات
رأيت لهيب قلوبكن طاقة ونيرانا .
وعلى قدر ما تحسه قلوبكن ايتها الامهات
يتقد في قلبي حداد ثقيل وموت ثقيل
كأنمـا هو غابـة
يبللها الدم الذي اغتال ابتساماتكن
وتخطو اليه ضبابات السهد الثائرة
مع وحدة الايام التي تمزق القلوب .

✶

ولكــن
من فوق اللعنة تنصب على الضباع الظامئة
على الحشرجات البهيمية
التي تعوي عبر العدوة بنجاستها الظاهرة .
من فوق الغضب ، من فوق الازدراء ، من فوق النواح
ايتها الامهات اللائي اخترقهن الحزن والموت
فلتنظرن فؤاد اليوم السامي الذي يولد
ولتعلمن ان موتاكن يبسمون من عند الثرى
ويرفعون قبضاتهم من فوق القمح

✶

كيف كانت اسبانيـا :

كانت اسبانيا مشدودة جافة
طبلة نهارية ذات صوت قاتم
بطاحا واعشاشا للنســور
صمتا من الخلاء المجلود بالسياط .

✶

كم احب الى حد البكاء ، الى قرار الروح
تربتك الصلدة ، خبزك المقدد
قراك الفقيـرة
كم تكمن في اعماق كياني الدفينة

الزهرة المنسية لضيعاتك المعروقة
لا يعدو عليهـا الزمـن
وأريافك المعدنيـة
تمتد عبر الاقمار وعبر الاعمار
يلتهمها اله فـارغ .
جميع تركيباتـك
عزلتك الحيوانية الى جانب افكارك
تحيط بها احجار الصمت المجردة .
نبيذك المـر
نبيذك الحلـو
كرماتك القوية والرقيقة .

✶

ايهـا الحجر الشمسي
النقي من بين مقاطعات الدنيـا
اسبانيا ، التي تعاقبت عليها الدماء والمعادن
زرقـاء منتصرة
بروليتاريـا النوارات والرصاصات ،
الفريدة الحية الناعسة المرنانة .

✶

أويلامو ، كاراسكوسـا ،(٣)
البيدريتي ، بويتراجـو ،
بالنسيا ، ارغندة ، جالفي ،
جالاباجار ، بيالبـا .

✶

بنياروبيـا ، ثدرياس ،
الكوثير ، تاموريخو ،
اجوادولتي ، بدريرا ،
فوينتي بالميرا ، كولمينار ، سيبولفدا .

✶

وصول الفرقة الدولية الى مدريد :
صباح يوم من شهر بارد
من شهـر محتضر لطخه الوحل والدخان
شهـر لا ركبة لـه
شهر حزين من حصار ومصائب
حين كان يسمع عبر زجاج نافذتي المبتلة
ابناء آوى الغزاه
يعوون وقد غطت الدماء اسنانهم وبنادقهم
حينئـذ
حين لم نعد نملك آمالا غير حلم من البارود
حين آمنا بانه لم يعد في الدنيـا
سوى وحوش نهمة وجنون
حينئـذ
انكسر صقيع شهر البرودة في مدريـد
في ضباب الفجـر
رأيت بعيني هاتيـن
بقلبـي هذا الذي يـرى
رأيت وصول الاطهـار
المحاربيـن المهيمنيـن
من فرقة الحجر الرقيقة الصبلة الناضجة المتهبة .

✶

كان زمـن الفـم
حيث النسوة يحملن غيابا كأنه فحم مرعب
والموت الاسبانـي
اكثر حدة وحرافة من انواع الموت الاخرى
قد افعم الحقـول
التي كان القمح يخلع عليها كرامة حتى ذلك الوقت .

✶

وفي الطرقـات
اتحدت دمـاء الانسان المحطومة
مع المياه التي سرت من قلب البيوت المدمرة .
وعظام الاطفـال المزقين
صمت الامهات المؤثر المتشح بالسواد
عيون المدافعين التي انغلقت الى الابد
كانت تماثل الحزن والخسارة
تماثل البستان المبصوق
كانت الايمـان والزهرة المغتالين الى الابد .

✶

حينئذ رأيتكم ايها الرفاق
وعيناي لمـا تزالا الى الآن تملأهما الكبرياء
لاني رأيتكـم تصلون الى جبهة قشتالة الطاهرة
على صفحة صباح مغطى بالضباب
صامتين ثابتيـن
كالاجراس قبـل الفجر
تظللكـم المهابة وعيونكم زرقاء
تأتون من بعيد ومن بعيد
تأتون من اركانكـم
من اوطانكم الضائعـة
من احلامكم المفعمة بالعذوبة المحترقة وبالبنادق
للدفاع عن المدينة الاسبانية
حيث الوحوش يحدقون بالحرية
وينوون اسقاطها والتهامها .

✶

يا اخوتي : منذ الآن
فليتعرف الطفل والرجل
والمرأة والشيـخ
عن طهارتكـم وقوتكم

وعلى تاريخكـم الجليـل
ولتصلوا الى كل الكائنات التي تفتقد الامل
ولتهبطوا الى جوف المناجم التي يدخرها الهواء الكبريتي
ولتصعدوا الى مدارج العبيد التي لا تعرف الانسانية
ولتكتب اسمكم وكفاحكم المرير
جميع النجمات ، كل سنبلات قشتالة والعالم اجمع
وانتصاركم القوي الارضي
كأنمـا هو شجرة بلوط حمراء .

✶

لانكم قد استولدتم من جديد بتضحياتكم
الايمان المفقود ، الروح الغائبة ، الثقة بالارض ،
وفي وفرتكم ، وفي نبالتكم ، وفي اموانكم
يشبق نهر رحيب طريقه
مفعم بحمائم الصلب وبالآمال ،
كأنما هو واد من صخور الدماء الجامدة

معركة نهر خارامـا : (٤)

وسط الارض والبلاتين المفرق
من اشجار الزيتون والموتى الاسبان
قاومت يا نهر « خرامـا » ،ايها الخنجر الطاهر ،
موجـات القساه .

✶

الى هنـاك من مدريـد
وصل رجال قلوبهم موشاة بالبارود
كالرغيف المجبول من الرماد ومن المقاومة
الى هنـاك وصلـوا .

✶

أيهـا النهـر
كنت هناك وسط الحديد والدخان
كغصن من البلور الساقط
كخيط طويل من النياشين
على صدر المنتصرين .

✶

لم تكـن الحفر ذات المادة الملتهبة
ولا الغارات المتفجرة الثائـرة
ولا المدفعيـة ذات الظلمة المضطربة
لتهيمن على مياهك .

✶

مياهك التي نهل منها الظامئون
الـى الدمـاء
نهلوا المياه مرفوعي الجبـاه
المياه الاسبانية واراضي اشجار الزيتون
وقد غمروهـا نسيانـا .

✶

في لحظة من المياه والزمن
نبض مجرى دمـاء الغزاة والخونة
في ضيائـك
كأنمـا هي اسماك في نبع مرير .

✶

كان دقيق اهلك الخشن
مرصعا بالمعادن وبالعظام
رائعـا ، فمحيـا
كالارض الحبيبة التي دافعوا عن حماها .

✶

أيهـا النهـر
لكي اتحدث عن البهاء وعـن السيادة
لا يكفي فمي لذلك ولا يداي الشاحبتان
فهناك يبقـى موتاك .

✶

هناك تبقى سماؤك المفجعة
سلامك الحجري ، مجراك الساري
وعيون اهلك الخالدة
تسهر على ضفافك .

✶

المريـه : (٥)

وجبة من اجل الاسقف
وجبة مطحونة مريرة
وجبة بها آثار من حديد
مع الرمـاد ومع الدمـوع
وجبة مفرقة ، مع نشيج وجدران هاوية
وجبة من اجل الاسقف ،
وجبة من دماء المريه .

✶

وجبة من اجل البنكيـر
وجبة من وجنات اطفال الجنوب السعيد
وجبة من دوي الانفجارات
من المياه المجنونة ومن الحطام ومن الفزع
وجبة من محاور مقسومة ورؤوس مدهوسة
وجبة سـوداء ،
وجبة من دمـاء المريه .

✶

كل صباح ، كل صباح كدر من حياتكم
ستجدونهـا على موائدكـم
يتوهـج منهـا البخـار
لسوف تبعدونهـا عنكم قليـلا بأيديكم
لكـي لا تروهـا
لكـي لا تهضموها مرات عديدة
لسوف تبعدونهـا قليلا بين الخبز وحبات العنب
تـلك الوجبة من الدماء الصامتة

التي سوف تكون هناك كل صباح
كـل صبـاح .

✶

وجبة من اجل الكولونيل وزوجة الكولونيل
في حفل العاب السيف ،
في كـل حفـل .
من فوق الشتائم والبصقات
مع ضوء نبيذ الفجـر
حتى تروها راجفة باردة فوق العالم .
اجل ، وجبة من اجلكم جميعـا
ايها الاغنياء هنا وهنـاك
ايها السفراء ، ايهـا الوزراء
ايهـا الاكولون النهمون
يا سيدات الشاي والمقاعد المريحة
وجبة ممزقة ، طافحة ،
يلوثهـا الدم الفقيـر
كل صباح ، كل صباح ، على الدوام المطلق ،
وجبة من دمـاء المريه ، امامكم على الدوام .

✶

أرض اساءوا اليهـا :
مناطق فاضت بعذابات لا تنتهي
وصمت لا ينقطـع
نبضات النحلة والصخرة المبادة
ارض زرعتم فيهـا علائم دمـاء جافة وجرائم
بدلا من القمح والبرسيـم .
« جليقية »(٦) ذات المياه الوفيرة
الصافية كأنها مياه الامطار
مالحة الى الابد من الدموع .
« اكستريما دورا » ،
وعلى ضفافهـا المهيبة
ذات السمـاء والالمونيوم
سوداء كثقب الرصاصة
مخانة ، جريحة ، ممزوقة ،
ترقد « بطليوس » بلا ذكريات
وسط ابنائهـا الموتـى
تتطلع الى سماء تتذكرها .
« مالقه » وقد حرثها الموت
طاردوها وسط المهاوي
حتى ساطت الامهات المخبولات
الاحجار بأجساد مواليدهن .
حمّيا ، طائف من حداد
وموت وغضـب ،
حتى استحالت الدموع والاحزان المجتمعة
واستحالت الكلمات والافماء والغضب
اكوامـا من العظام في الطرقات
وحجرا قد دفنـه الغبار .

✶

هذا كثير ، كثير قبور
كثير عذاب ،
كثير خبب للوحوش عبر النجوم !
لا شيء ، حتى ولا النصر
يمكن ان يمحو ثقب الدمـاء المفزع
لا شيء ، حتى ولا البحر ،
ولا مسرى الرمـال والزمن ،
ولا زهرة الجيرانيوم الملتهبة
فوق الجدث .

✶

« سانخورخو » (٧) في الجحيم :
مربوط ، يتصاعد منـه الدخان
مقيد الى جوار طائرته الخئون
الى خياناته
يتحرق الخائن المخان .

✶

تشتعل كليتاه كأنهمـا الكبريت
ويذوب فمه الشرير في لعنات
كجنـدي خائـن .

✶

يطير وسط شعلات ابديـة
تقوده وتحرقه الطائرات
يتحرق من خيانة الى خيانـة .

✶

« مولا » في الجحيم :
ها هم يجرون « مولا » البغل الكدر
من هاوية ابدية الى اخرى
كما ينتقل الغارق من موجة الى موجة
ينخر فيه الجير والقرون
يطبخونه في الجير والمرارة والنفاق
بعـد ان انتظروه طويـلا في غياهب الجحيم
يخطو الخلاسي الجهنمي ، مولا البغل ،
وقد استحال كدرا وصفارا الى الابد
واللهيب يخرج من جسده .

✶

الجنرال فرانكو في الجحيم :

أيهـا التعس الشقـي
لا النيران ولا الخل الملتهب
في عش الساحرات البركانيات

ولا الجليد الذي يلتهم كل شيء
ولا السلحفاة المتعفنة التي تخدش « كرشك »
وهي تنبح وتبكي بصوت امرأة ميتة
باحثة عن خاتم عرس
ولعبة طفل ذبيح
لن يصبح ذلك كله بالنسبة لك
الا بابا مظلما متهدما .

*

اجل .
من جحيم الى جحيم ، ماذا هناك ؟
في عواء فرقك العسكرية
في لبن امهات اسبانيا المقدس
في اللبن والاثداء التي داستها الطرقات
هناك مزيد من الضيعات ، ومزيد من الصمت ،
وباب محطوم .

*

ها انت : جفن بائس ،
روث فرخات الجدث الشريرة ،
بصاق قذر ،
رقم خيانة لا تمحوه الدماء .
من ، من تكون ؟
يا ورقة الملح التعسة ، يا كلب الارض ،
يا صفرة الظلال ذات الطالع المنحوس .

*

وينزاح اللهيب دونما رماد ،
ويشحب ظمأ جهنم المالح ،
ودوائر الحزن .

*

ايها الملعون
فليطاردك كل ما هو انساني
فلتظل خالدا في نيران الاشياء المطلقة
فلتبق ابدا على سلم الزمان
ولا يثقبنك الزجاج الملتهب
ولا الزبد المفترس .
وحيدا ، وحيدا
للدموع وقد تجمعت كلها
لابدية من الايادي الميتة والعيون المتعفنة
وحيدا من كهف من جحيمك
تلتهم الصديد والدماء السواكن
في ابدية ملعونة وحيدة .
لا تستحق ان تنام
حتى ولو دقت عيناك بالدبابيس
يجب ان تبقى يقظا ايها الجنرال
يقظا الى الابد
وسط عفونة من النسوة الولودات
اللائي حصدتهن الرشاشات في الخريف .
كلهن ، وكل الاطفال الحزانى
المقطعين ،
المتيبسين ،
متعلقون في جحيمك
انتظارا ليوم الحفل المقرور
يوم وصولك
اطفال احالهم الانفجار سوادا ،
مزقات حمراء من لحمهم ،
وقنوات من الامعاء الحلوة ،
ينتظرونك جميعا ، جميعا
على حالتهم الاولى
من عبور طريق ،من دفع الكرة ،
من التهام فاكهة ، او من بسمة ،
او ميلاد .

*

بسمة . ثمة بسمات
قد هدمتها الدماء
تنتظر باسنان مبعثرة متحطمة
واقنعة من مادة لا شكل لها
وجوه فارغة من البارود الازلي
والاشباح التي لا اسم لها
والخفيون السود
الذين لم ينهضوا ابدا من فراش حطامهم
الكل في انتظارك
لتمضية الليل ،
يملأون الاروقة كأنهم الطحالب الفاسدة
انهم منا ،
كانوا لحمنا ، عافيتنا ،
سلام حدادتنا ،
محيطنا من الهواء والرئتين .
ولقد ازهرت الارض الجافة عن طريقهم
والآن
ها هم بعيدون عن متناول الارض
قد استحالوا مادة محطومة
مادة مغتالة
دقيقا ميتا ،
ينتظرونك في جحيمك .

*

الفزع الحاد والحزن يخبوان
فلا الفزع ولا الحزن ينتظرانك .
وحدك ، ولتحل عليك اللعنة

وحدك ، ولتكن متيقظا ابدا وسط كل الموتى
وليسقط عليك الدم كالامطار
وليزحمك نهـر محتضر من العيون المروءة
يطوف محملقا فيك دونمـا نهاية .

✶

نشيد فوق بعض الاطلال :

ذلك الذي رأى النور وهيمن عليه الانسان
واستعمله ورآه ، وتضمخ بالرطوبة
ها هو يرقد ـ ذلك المنديل المسكين ،
وسط موجات الثرى والكبريت الاسود .
مثل البرعم او مثل الصدر
حين ينهدان ناحية السمـاء
ومثل الزهرة التي تصعد من العظمة المحطومة
هكذا تبدت اشكال الدنيا .
آه ايتهـا الجفون ،
آه ايتها الاعمدة
آه ايتها المدارج !
آه ايتها المادة الدفينة المنجمعة الصافية
اي جهد كان قد صاغك اجراسا !
اي جهد كان قد صاغك ساعات '
صفائح من التناسبات الزرقاء
اسمنتا ملتصقا بأحلام الكائنات '.
ويتجمع الغبار
والمطاط ، والوحـل .
والاشيـاء تتكاثـر
وترتفع الجدران مثل تعربشات الجلد القاتم .
هناك ، في الداخـل
في بياض ، في نحاس ،
في نيران ، فـي حجر ،
تتكاثر الاوراق والنواح البغيض
والوصفات المحمولة بليل الى الصيدلية
لشخص محموم .
الصدغ الذهني الاعجف ،
الباب الذي شيده الانسان
لكـي لا يفتحه ابدا .
كله راح وسقط في ذبول وحشي .
عدة جريحة ، اقمشة ليلية ،
زبـد قـذر ،
بول قد أريق في موعده
وجنات ، زجاج ، صوف ،
كافور ، دوائر من خيط وجلـد
كل شـيء .
كل شـيء عاد دورة اخرى الى التراب
الى حلم المعادن المضطرب
كل العطر ، كل ما هو فتان
كل شيء تجمع في اللاشـيء
كل شيء يسقط لكي لا يولد ابدا .

✶

ايها الظمأ السماوي
ايتها الحمائم ذات زنارات الدقيق
يا حقب لقاحات الازاهير والافنان
انظروا كيف تتحطم الاخشاب
حتى تتشـح بثياب الحداد .
ليس هناك من جذور للانسان
وكل شيء لا يكـاد يستقر على رجفة الامطار
انظروا كيف تتحطم الاخشاب
على فم العروس العاطرة
انظروا الكلمات التي تعبوا في بنائها
والان قد استحالت هلاكا
انظروا فوق الجير ووسط المرمر المتحلل
آثار النشيج وقد غطاها الفطر .

✶

انتصار سلاح الشعب :

ولكـن ،
مثل ذكرى الارض
مثل بهاء المعدن والصمت الصخري
هكذا يكـون انتصارك
ايها الشعب ، ايها الوطن وايها الشوفان .

✶

تتقدم راياتك التي ملأتها الثقوب
مثل صدرك ،
فوق ثلمات الزمن والارض .

✶

النقابات في الجبهـة :

اين هم عمال المناجـم ؟
اين هم من يفتلون الحبال ،
والذين يصنعون نعال الاحذية ،
والذيـن يصلحون الشبّاك ؟
أيـن هم ؟

✶

أين من كانوا ينشدون
من فوق اعالي المبانـي
يبصقون ويتشاتمون
من فوق الاسمنت الهوائي ؟

✶

اين هم عمال القطارات
المتطوعون الليليون ؟
اين هي نقابة التمويـن ؟

*

حاملين البندقية . حاملين البندقية .
وسط نبضات السهول الشهباء
يطوفون بنظراتهم فوق الحطام

*

يصوبون الرصاصة
في صدر العدو القاسي
كأنما في صدر الاشواك
كأنما في صدر الافاعي .
هكذا .

*

آناء الليل واطراف النهار
في رماد الفجر الحزين
في حقيقة الضحى المحترق .

*

الانتصار :

مهيب هو انتصار الشعب .
وعند موكبه الفائز العظيم
تلمع حبات البطاطس العمياء والعنب السماوي
في الارض .

*

مشهد ارض بعد معركة :
فضاء منهوش ،
قنوات ممرغة على صفحة الفلال
حدوات محطومة
قد تثلجت وسط صقيع وحجارة
قمر خشن .

*

قمر الفرسة الجريحة
المحترقة ، الملتفة باشواك منهكة
معدن او عظام منذرة ،منهارة .
غياب ، نسيج مرير ،
دخان اللحادين .

*

فيما وراء هالة النترات المريرة
من مادة الى مادة ، من مياه الى مياه
مسرعين كأنهم القمح المنتثر
محترقين مأكولين .

*

لحاء المصادفة ، ناعم في نعومة .
رماد اسود غائب ومنتشر
وليس الآن سوى برد مرنان
وادوات المطر البغيضة .

*

فلتحتفظا به يا ركبتي دفيئا
اكثر من تلك البقعة الهاربة
ولتمسكا به يا جفني حتى تسمّيا وتجرحا
وليحتفظ دمي بذلك المذاق للظلال
حتى لا يكون هناك مكان المنسيان .

*

مهاجمو الدبابات :
اغصان مجبولة كلها من حر اللآليء
اكاليل ذهبية من بحار وسماوات
هبئات من اكاليل الغار
لكم ايها الابطال البلوطيون
يا مهاجمي الدبابات
لقد كنتم في فم الحرب الليلي
ملائكة النيران المخيفين ،
ابناء الارض الاطهار .

*

هكذا كنتم
مبذورين وسط الحقول
قاتمين كأعواد الزرع
منطرحين تنتظرون .
وفي مواجهة الحديد العاصف
في صدر الوحش الهائل
قد رميتم
ليس فقط شذرة شاحبة من المتفجرات
وانما قلبكم العميق يتفاوح منه الدخان
سوطا مدمرا ازرق كالبارود .
لقد ثبتم كالطود
مرهفين سماويين
في مواجهة جبال القسوة
يا ابناء الارض والمجد المجردين .
انتم لم تروا ابدا قبل ذلك
سوى الزيتون
ابدا سوى الشباك تضطرم بالقشور والفضة
انتم قد جمعتم الآلات ، الخشب ،
حديد المحاصيل والبنايات
وبين ايديكم ازهرت رمانة الغاب الجميلة
او بصلة الصباح
وبغتة ها انتم محملون بالبروق
تضغطون زناد المجد
تتفجرون بقوى ثائرة
وحيدين صلابا في مواجهة الظلمة .

*

لقد جمعتكم الحرية من المناجم
وطلبت سلامـا من اجل حرثكم
وقامت الحرية تبكي وسط الطرقات
تصرخ في اروقة البيوت
وعبر الريف
مر صوتها وسط البرتقال والرياح
مناديـا الرجال ذوي القلوب الناضجة
ولبيتم نداءهـا
وها انتم يا ابناء النصر الاعزاء
كم من مرة سقطتـم
كم من مرة محيت اثار ايديكم
وتحطم غضروفكم الدفيـن
وسكتت افواهكـم
وانسحق صمتكم حتى لحقَ به الدمار
ولكنكـم تنبثقون بغتة من جديد
في وسط الاعصـار
مرة اخرى ،
بكل عنصركم الملتهب الذي لا يسبر له غور
عنصر القلوب والجذور .

✶

مدريد ١٩٣٧ :

تذكّر في تلك الساعة كل شيء وكل انسان
محمومـا ، مفرقا في المقاطعات
التي بها شيء من الاضطراب ، صوتا وريشا ،
وتقع فيمـا وراء الارض ، ولكنها على الارض .
اليوم يبدأ شتاء جديد .
لا يوجد في تلك المدينـة
التي تضم حدودها كل مـا احب
لا يوجد خبز ولا نـور
ويسقط بللور مقرور على زهور جيرانيوم ذابلة .
وفـي الليـل
احلام سـوداء
نسجتهـا طلقات المدافـع
كأنها ثيران داميـة
وما من شيء في فجر التحصينات
سوى عربة محطومة
وقد حل الفطر وصمت الاعمار
محل عصافير الجنـة
في المنازل المحترقة الدامية الفارغة
التي تتجه ابوابها ناحية السماء.
هاقد بدأت السوق تفتح زمرداتها البائسة
وينتقل البرتقال والسمـك ـ
الذي يأتي كل يوم عبر الدمـاء ـ
الى ايدي الاخت والارملة .
مدينة الحداد ، مبقورة ،
جريحة ، محطومة ، مضروبة ، مثقوبة ،
مليئة بالدماء وشظايا الزجاج
مدينة بلا ليـل
كلها ليل وصمت وقصف وابطال
والان شتاء جديد
أشد عرى ووحدة
الآن بلا دقيق وبلا خطوات
مع قمر محاربيـك
كل شـيء وكـل انسان .

✶

شمس واهنـة
دماؤنا الضائعـة
قلب رهيب ، يبكـي مفرقـا .
دموع كالرصاصات الثقيلة
قد سقطت على ارضك القاتمة
لها صوت الحمائم حين تسقط .
يد تغلق ابواب الموت الى الابد
دمـاء كل يوم ، وكل ليلـة ،
وكل اسبوع وكـل شهـر .
دون الاشارة اليكـم
ايها الابطال النائمون واليقظى
دون الاشارة اليكـم
يا من تشيعون الرعدة في المياه والارض
بارادتكـم الشهيرة .
في تلك الساعةاسمعدقاتالساعة فياحدىالطرقات
واحدهم يحدثني
ويأتي الشتاء من جديد
الى الفنادق التي اعيش فيهـا
وكل ما اسمع هو المدينة
وآماد تحوطهـا النيـران
كأنما هـي رغوة الافاعـي
تهاجمها مياه من مياه الجحيم .
ها قد مر اكثر من عـام
والملثمون يلامسون شاطئك الانساني
ويمون من تماس دمائك الكهربية
اجولة من الغزاة ، اجولة من الخونة
قد حاصروا اقدامك الحجرية
ولم يتمكن الدخان ولا الموت
من قهر جدرانك الملتهبة .
وعلى ذلك .. هل من جديد على ذلك ؟
اجـل ،

/ انهم اصحاب الهلاك
انهم الشرهون
يترصدون خطاك ايتها المدينة البيضاء
الاسقف ذو الجبهة الكدرة
ابناء السادة الخرئون الاقطاعيون
والجنرال
ترن في يده ثلاثون قطعة من الفضة .
انهم في مواجهة جدرانك
زنار من المنافقين الماطريس
كتيبة من السفراء العفنين
وفواق حزين من الكلاب العسكريين .

*

الحمد لك ، الحمد في الغيم
في البرق ، في العافية ،
في السيوف
أيتها الجبهة الدامية
التي يتلألأ خيط دمائها
على الاحجار المثخنة بالجراح
انزلاق ذو حلاوة قاسية
مهد صاف مسلح بالبروق
بمواد المدن وهواء الدماء
التي تولد منها النحلات .
اليوم ،
انت يا خوان ، يا من تحيا اليوم ،
انت يا « بدرو » يا من ترى
وتدرك ، وتنام ، وتأكل :
اليوم في الليل الخالي من النور
تسهران دونما راحة ولا نوم
وحيدين وسط الاسمنت
في الارض التي تقطعت بها الاسباب
من عند الاسلاك التي اتشحت بالحداد
في الغرب ، في الوسط ، ومن الحوالي
دونما سماء ، دونما اسرار
رجال كسوار من الجبال
يدافعون عن المدينة التي يحوطها اللهيب
مدريد
التي ارتدت صلبة من ضربة كوكب
ومن اضطراب النيران
ارض وسهر
في صمت الانتصار المتعالي
راجفة كالوردة المنحطة
تحوط بك اكاليل الغار التي لا تنتهي .

*

انشودة شمسية الى جيش الشعب :

يا أسلحة الشعب !
هنا !
النذير ، الحصار
ما زالا يسفكان الارض
ويخلطانها بالموت
وقد خلعت عليها الابر خشونة !
سلاما ، سلاما
سلاما ، تقولها لك امهات الدنيا
المدارس تقول لك : سلاما
النجارون الهرمون يقولون لك سلاما
يا جيش الشعب
يقولون لك سلاما
مع السنابل ، واللبن ، والبطاطس ،
والليمون واشجار الغار
وكل ما هو من الارض
ومن فم الانسان
كلهم ، مثل الزند
مثل الزنار النابض
مثل ثبات عنيد من البروق
والكل يتجهز من اجلك
والكل يصب فيك !
يوم من حديد .
زرقة محصنة .
الى الامام ايها الاخوة
الى الامام نحو الارض المحروثة
الى الامام في الليل الجاف الخالي من الاحلام
الليل المحموم البالي
الى الامام وسط الكرمات
تخطون فوق لون الصخور القرور
سلاما ، سلاما ، استمروا ،
اشد حدة من صوت الشتاء
اشد حساسية من الاجفان
اشد ثقة من طرف الرعد
مرهفين كالماسة القاطعة
حربيين من جديد
مقاتلين على شرعة المياه المغطاة بالصلب في الوسط
على شرعة الزهرة والنبيذ
على شرعة قلب الارض الحلزوني

على شرعة جذور الاوراق جميعها
جذور السلع التي تفوح بالشذى على الارض
سلامـا ايها الجنود، سلامـا
ايتها الاراضي الحمراء
سلامـا ايها البرسيم الجامد
سلاما ايتها القرى التي توقفت على ضوء البرق .
سلامـا ، سلامـا ، سلامـا ،
الى الامـام ، الى الامام ، الى الامـام
من فوق المناجم ، من فوق المقابر ،
في مواجهة شهية الموت الكريهة
في مواجهة فزع الخونة الشائك
ايتها الشعوب ، ايها الشعب القادر .
ايها القلب وايتها البنادق
ايها القلب وايتها البنادق
الى الامـام .
ايهـا المصورون ،
يا عمال المناجم ، يا عمال السكك الحديدية
يا اخوة الفحم والاحجار ، يا اقرباء المطارق
والغابات ومهرجان الطلقات الفرحة :
الى الامـام .
ايها المقاتـلون ، ايها الكبار ، ايها الجاويشية
ايها المندوبون السياسيون ، يا طياري الشعب ،
ايها المحاربون الليليون ، ايها المحاربون البحريون :
الى الامـام .
لا يقوم في مواجهتكـم
الا سلاسل متهاويـة
ثقوب من الاسماك المتعفنة
فالى الامـــام ! !
ليس هناك سوى موتى يحتضرون
مستنقعات من صديد رهيب دام
ليس مـن اعـداء
فالى الامام يا اسبانيـا
فالى الامام ايتها النواقيس الشعبية
الى الامام يا مقاطعات التفاح
الى الامام ايتها الرايات الفلاحية
الى الامام ياحروف النيران الكبيرة
لانكم تحملون في الصراع وفي الموجات
في المروج وفي الجبـال
وفي الشفق المحمل بالعبير الحريف
ميلادا من الثبـات
خيطـا من الصلابة الشديدة .

وفي تلك الاثنـاء
يبزغ جذر واكليل من الصمت
لكي ينتظـر الانتصار المعدني .
كل اداة ، كل عجلة حمراء
كل مقبض منشار او رأس محراث
كل ما تنتجه الارض ، كل رجفـة من رجفان الدماء
تريد ان تتبع خطواتك يا جيش الشعب .
ان نورك النظامي يصل الى الرجال
المساكين المنسيين
ونجمتك المحـددة
ترشق اشعتهـا الاجشة في الموت
وتقيم صرح عيون الآمال الجديدة .

ترجمة : ماهر البطوطي

هوامش :

(١) كريستوفر البحار هو « كريستوفر كولومبس » مكتشف قارة امـريكـا .

(٢) في ١٨ يوليـو ١٩٣٦ قـام العسكريـون بانقلابهـم ضد الجمهوريـة الاسبانيـة وكان ذلك بدايـة للحـرب الاهليـة الداميـة التي انتهت عام ١٩٣٩ بانتصار العسكريين .

(٣) يورد نيرودا هنـا اربعـة عشر مقطعا كلهـا اسماء قرى ومـدن اسبانيـة ، رأينا الابقاء منها على مقطعين .

(٤) نهر خاراما نهـر شهير بالقرب من مدريـد وقعت عنده معركـة من معارك البطولة في الحرب الاهلية الاسبانية .

(٥) المريه احدى مدن الاندلس ، استولى عليها العسكريـون بعـد كثير مـن القتـل والدمـاء .

(٦) « جليقية » ، و« اكستريمادورا » مقاطعتان في اسبانيا، و« بطليوس » احدى مدن المقاطعـة الثانيـة ، « ومالقة » مدينة بحريـة مشهـورة .

(٧) « سانخورضو » ، و « مولا » جنرالان من قادة الانقلاب العسكري الذي ادى الى الحـرب الاهلية . وقد قتـلا فـي حوادث طائرات في الشهور الاولى من الحرب .

يسري خميس

رحلتنا تجاه الشمس

مراكب الشمس على نافذتي ، والشمس لم أعد أراها . مرّ قميص الحزن والخيانة ، ومزهق ، يصبغ جلدي بالغضب ــ سيف أنا ، اجرح من يمسني ، ومن يمسني يجرحني ، سيف من العشب، من النسيلة ، يحتاج للماء وللهواء ، يحتاج الشمس ، يا امرأة جميلة ، احببتها ، بعد ولم أفقدها ، لانني عرفتها عن قرب ، رضعت من ثدييها ، ضاجعتها وضاجعتني ، قدمت لي كل شيء ، قدمت لكل شيء معنى . سافر في ظلام اليوم شجر الصفصاف وافتقد المزارعون المتعبون الشمس والظل معا ــ « أنا مظلتك أنت مظلتي » تقول لي وتخلع الرداء ــ لم يبق غير الجسد البشري ، قارورة فيها الدواء والداء ، لم يبق غير الجسد البشري والتفهم . سافر في ظلام اليوم شجر الصفصاف ــ وسفن الشمس التي بنيتها

من أضلع المزارعين
من أضلع المزارعين الفقراء
من أضلع المزارعين الفقراء الموتى
من أضلع المزارعين الفقراء الموتى بلا ثمن ــ
من قصب الحلم الذي يكبر كلما كبرت ، يزداد في الحلاوة ، وشعرك الطمي الذي يربط ذلك البناء ــ لمن ؟

« تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن » تقول لي وتخلع الملابس التحتية ــ عارية مثل الاله رع ، بالضوء يكشف الاشياء ، لا يخجلها ، يا الجسد البشري طيّب ،قويّ ــ الشمس ما نحتاجه ، سواعد المزارعين الفقراء المتعبين مجدافنا ، يضرب في الهواء ، يصفع وجه الوقت ــ يا زمنا تسرق فيه الشمس ــ بعد لم أفقدها ، الارض ، ما تزال تشوي قدمي وجسدي ممتلىء بالقمح .

فرانكفورت ١٩٧٤

كولن ولسن

«الانسان وقواه الخفية»

يصدر هذا الشهر عن « دار الآداب » كتاب هام من احدث كتب كولن ولسن بعنوان « الانسان وقواه الخفية » وهو تحوير للعنوان الاصلي The Occult . وننشر فيما يلي مقدمة هذا الكتاب الذي نقله الى العربية الاستاذ سامي خشبة .

●

قضية هذا الكتاب قضية ثورية ، ولا بد لي ان اقررها بوضوح في البداية .

لقد آمن الانسان البدائي بان العالم كان مليئا بقوى غير منظورة: الاورندا The Orenda (قوة الروح) عند الهنود الامريكيين ، او الهواكا The Huaca عند اهل بيرو القدماء . وقال « عصر العقل » ان تلك القوى لم يكن لها وجود قط الا في خيال الانسان ، وانه ليس سوى العقل وحده ما يستطيع ان يطلع الانسان على حقيقة الكون . وكانت المشكلة هي ان الانسان قد اصبح قزما مفكرا ، وكان عالم العقليين مكانا يشيع فيه ضوء النهار ، حيث كان الضجر والتفاهة و« العادية » هي الحقائق النهائية والمطلقة .

ولكن المشكلة الرئيسية بالنسبة للكائنات الانسانية هي ميلهم الى ان يقعوا في شرك : « تفاهة الاشياء اليومية »، اذا ما استعرنا عبارة هايدجر في عالم مشاغلهم الشخصية الخانق ، وفي كل مرة من مرات وقوعهم في هذا الشرك ، فانهم ينسون العالم الشاسع الهائل ذا المغزى الاكثر اتساعا الذي يترامى من حولهم ، ولما كان الانسان بحاجة الى احساس بالمعنى لكي ينفس عن طاقاته المخبوءة ، فان هذا النسيان يجذبه - او يدفعه - الى اغوار عميقة عن الانقباض والضجر ، وهو الاحساس بان شيئا لا يستحق ان يبذل من اجله اي جهد .

وبمعنى ما ، فان الهنود الامريكيين واهل بيرو كانوا اقرب الى الحقيقة من الانسان الحديث ، ذلك لان حدسهم لـ « القوى غير المنظورة » جعلهم منفتحين لتلقي مظاهر وتجليات المعنى التي تحيط بنا.

من الممكن ان ننظر الى « فاوست » لجوته باعتبارها اعظم دراما رمزية ابدعها الغرب ، طالما انها دراما الانسان العقلي الذي يختنق في غرفة وعيه الشخصي التي تعلوها الاتربة ، واقعا متخبطا في دائرة الضجر والعقم المفرغة التي تؤدي بدورها الى مزيد من الضجر والعقم . ان اشتياق فاوست الى معرفة « الغيب » هو الرغبة الغريزية في الايمان بالقوى غير المنظورة ، وبالمغزى الاكثر اتساعا ، الذي يستطيع ان يكسر تلك الدائرة فيضع نهايتها .

ان ما يثير الاهتمام هو ان الانسان الغربي قد طور العلم والفلسفة بسبب هذه الرغبة المتلهفة الحارقة الساعية الى المغزى الاكثر اتساعا . ولم يكن تفكيره العقلي هو ما خانه ، وانما كان عجزه عن التفكير بوضوح هو الخائن ، اي ان يفهم ان العقل الصحيح لا بد له ان يستخلص من العالم « زادا » من المعنى اذا كان له ان يستمر في الحصول على « نتيجة » من المجهود الحيوي . وكان الخطأ القاتل هو فشل العلماء والعقليين في المحافظة على تفتح عقولهم للاحساس بال « هواكا » ، اي بالقوى غير المنظورة . لقد حاولوا ان يقيسوا الحياة بمسطرة طولها ست بوصات ، وان يزنوها بصنجات المطبخ . ولم يكن هذا علما ، وانما كان فجاجة لا تزيد اكثر من درجة واحدة على فجاجة المتوحشين ، وقد سخر سويفت منها في قصته « رحلة الى لابوتا » .

يعيش الانسان بان « ياكل » المغزى مثلما ياكل الطفل الطعام . وكلما ازداد عمق احساسه بالدهشة ، كلما ازداد اتساع فضوله وتطلعه الى المعرفة والفهم ، وازدادت قوة حيويته ، وازدادت قوة قبضته على وجوده الخاص .

هناك طريقان يستطيع عليهما ان ينطلق ويمتد : الى الداخل، والى الخارج . انني اذا كنت في بلد اجنبي وانتابتني رغبة قوية في اكتشافه اكتشافا شاملا وعميقا ، وان ازور ابعد اماكنه ، فان هذا هو المثال النموذجي للامتداد نحو الخارج . ولن يكون من غير الصحيح ان نقول ان حب الكتب والموسيقى والفن هو نموذج الرغبة في الامتداد نحو الداخل . ولكنه ليس سوى نصف هذا النوع من الامتداد . لان ما يحدث اذا ما اصبحت فجاة مفتونا ببلد اجنبي هو ان اشعر بنفسي كما لو كنت عنكبوتا كامنا في مركز نسيجها ، انني اشعر بكل انواع « المغزى » التي تهتز على طول النسيج ،فاريد ان امد اطرافي فاجتذبها جميعا . ولكن نفس الشيء هو ما يحدث في حالات السكينة الداخلية العميقة . حينذاك اشعر بمساحات داخلية شاسعة ، وبانواع غريبة من المغزى في « داخلي » . فلا اعود كائنا انسانيا ضئيلا تافها من القرن العشرين ، واقعا في شرك عالم حياته وشخصيته . مرة اخرى اكون في مركز نسيج العنكبوت ،شاعرا باهتزازات المعنى . وفجاة اتبين في اعمق المعاني ان اولئك الهنود الامريكيين واهالي بيرو كانوا على حق . انني اصبح مثل شجرة ادركت فجاة ان جذورها تغور عميقا ، عميقا في باطن الارض .وفي هذه اللحظة الحاضرة من التطور ، تمضي جذوري الى عمق ابعد بكثير مما تمتد فروعي من فوقها - انها ابعد واعمق منها بالف ضعف .

وما يسمى بالقوى السحرية ، انما هو جزء من هذا العالم الكامن الخفي : قدرات الحاسة السادسة او البصيرة الثانية ، والرؤية المسبقة ، والتواصل عن بعد ، والتنبؤ . وليست هذه القدرات هامة بالضرورة لتطورنا . ان اكثر الحيوانات يمتلكونها ، وما كان لنا ان

نسمح لها بان تفرق فتختفي وراء ستار اهمال استخدامها لو انها كانت قدرات اساسية . ولكن معرفة الانسان بجذوره ، بعالمه الداخلي ،« هامة » بالنسبة له بالفعل في هذه النقطة من تطوره ، لانه وقع في شرك تخيله عن نفسه باعتباره قزما مفكرا . لا بد له بشكل ما ان يعود الى معرفة انه ، بحق وعن مقدرة ، « ساحر » خارق القدرة ، واحد من تلك الشخصيات السحرية التي تستطيع انترسل صواعق البرق او تامر الارواح فتنقاد لها . وقد كان الفنانون والشعراء العظام مدركين لهذا على الدوام . ان الرسالة التي تحملها سمفونيات بيتهوفن ، يمكن ان تلخص في عبارتين : « ليس الانسان ضئيلا ، انما هو كسول الى حد لعين » .

***

لا تستطيع الحضارة ان تتقدم الى ابعد مما وصلت اليه حتى يسلم الناس بقوى الغيب غير المنظورة تسليما بديهيا على نفس مستوى تسليمهم بالطاقة الذرية . ولست اعني بهذا انه ينبغي على العلماء أن ينفقوا اماسيهم امام لوحة تحضير الارواح ، او انه ينبغي على كل جامعة ان تقيم « قسما للعلوم الروحية » على النمط الذي وضعه « معهد الراين » في مدينة ديوك . وانما اعني ان علينا ان نتعلم كيف نمتد نحو الداخل حتى تستطيع بشكل ما ان نعيد اقامة الاحساس بالهواكا ، حتى نصل الى اعادة خلق الاحساس ب « القوى غير المنظورة » التي كانت معروفة وعادية بالنسبة للانسان البدائي . « لا بد » لهذه المهمة من أن تنجز بشكل ما . هناك جوانب مما يدعى بغير الطبيعي ينبغي علينا ان نتعلم كيف نسلم بها دون نقاش ،وكيف نعيش معها بنفس البساطة التي عاش بها اسلافنا معها . يقول بليك : « ان مدركات الانسان ليست مقيدة باعضاء الادراك ، فهو يدرك اكثر مما تستطيع حواسه أن تكتشف (رغم ان ما يدركه يكون بالغ الدقة) » . انه « يعرف » ، اشياء لم يكن قد تعلمها او علم عنها شيئا من خلال المدرسة او التجربة اليومية ، وفي بعض الاحيان يكون من المريح اكثر الا يعرف تلك الاشياء . ويحكي اوزبيرت سيتويل حكاية غريبة عن قارئة كف :

« كان كل زملائي الضباط الذين يماثلونني سنا ، قد ذهبوا قبل شهرين او ثلاثة في هذا العام لرؤية قارئة كف شهيرة، قيل عنها فيما اذكر ان مستر ونستون تشيرشل اعتاد ان يستشيرها في بعض الاحيان . وقد اعتاد اصدقائي على زيارتها بالطبع آملين أن يقال لهم ان قصص حبهم سوف تنجح ،ومتى سوف يتزوجون ، والاتجاه الذي سوف تتطور فيه حياة كل منهم العملية المقبلة . ويحدث في كل مرة ، ان العرافة ما تكاد تبدأ في قراءة حظوظهم ومستقبلهم ، حتى تطوح بالكف الممدودة اليها في انزعاج مفاجيء وهي تصيح . « لا افهمها ! انه نفس الشيء مرة اخرى ! فبعد شهرين او ثلاثة ، ينقطع خط الحياة، ثم لا يمكنني ان اقرأ شيئا ..» . وكانت هذه العبارات تبدو لكل شخص قيلت له مجرد عذر ارتجلته العرافة لكي تبرر فشلها : ولكن حينما حكى لي هذه القصة اربعة او خمسة اشخاص، تساءلت عما كان يمكن أن تنذر او تنبيء به ..» (*)

وكانت هذه القصة تنبيء باندلاع الحرب العالمية الاولى ، وكانت تنبيء بموت الرفاق الضباط الذين كانت خطوط الحياة في ايديهم تنقطع بعد ثلاثة شهور من استشارة قارئة الكف .

من المحتمل ان يكون عدد القراء الذين قد يصرفون الانظار عن هذه القصة باعتبارها من وحي الخيال او كذبة صريحة عددا ضئيلا جدا . وقد يشعر عدد اكبر بانها تحتوي على قدر من الحقيقة ،ولكنها تعرضت لشيء من المبالغة . اما غالبية الناس فقد يقبلونها على انها حقيقية بقدر ما ، وان كانت غريبة شاذة .. ولكنها ليست بالغة الاهمية ، وهم على الاقل ، لا يعتزمون التفكير فيها . ونحن ميالون الى الركون الى هذه الاستجابة متى ما واجهنا « الغريب الشاذ » : بان ندفعه الى قسم مستقل ومغلق من العقل ، يحمل لافتة تقول : « الاستثناءات » ، ثم نتركه للنسيان . وقد سمعت انابراهام لينكولن ، كانت تنتابه الاحلام والهواجس التي تنبئه بموته قبل اسبوع من اغتياله ، وهذا شيء « غريب » وعارض ، ولكنه ايضا تاريخ قديم، وربما كان قد تعرض للمبالغة . انني افتح « ملحقا » ملونا منملاحق صحف يوم الاحد ، فاقرأ انه قبل اسبوع من الانفجار الذي دمر طائرة شركة الطيران البريطانية الاوروبية من طراز « كوميت » يوم الثاني عشر من اكتوبر عام ١٩٦٧ ، فان الراكب نيكوس بابابترو كانت تطارده الهواجس المشؤومة والاحلام التي تدور حول الموت والحداد ، حتى انه حاول قبل اقلاع الطائرة بساعة ان يحول تذكرته الى طائرة اخرى (**) وليس هذا تاريخا بعيدا ، ولكن ينبغي أن نذكر ان بابابترو « كان » يحمل القنبلة التي انفجرت مصادفة . لقد كان مهربا للمواد المتفجرة ، وكان قد قام بست رحلات مشابهة قبل تلك الرحلة الاخيرة في السنة نفسها . فلماذا اذن لاحقته الهواجس في تلك الرحلة بالذات ؟ اننا نهز اكتافنا ، ونوافق على ان هذه مسالة غريبة وشاذة ، ثم نروح نفكر في موضوع آخر .

اسمحوا لي ان اقول انني لا اقترح ـ بالتأكيد ـ انه ينبغي علينا ان ننفق حياتنا في الاهتمام بالاحلام والهواجس ، او لائذين بعارفي الحظوظ والراجمين بالغيب ، انها لغريزة صحية تلك التي تجعلنا نتجاهل الهواجس المشؤومة والاحلام ، ونستمر في الاهتمام بمشاغل الحياة العملية . ولكن الموقف المتصلب المتعنت ازاء مثل هذه الاشياء هو « خطأ » باكثر معاني هذه الكلمة بساطة ومنطقية . فمنذ قرنين فقط من الزمان ، اعلن اكثر العلماء تمتعا بالاحترام ، انه كان من السخف أن يؤكد احد ان عمر الارض يزيد على بضعة الاف قليلة من السنين او ان يؤكد ان وحوشا غريبة الهيئة قد هامت في غاباتها . وحينما كان بعض العاملين في المحاجر يكتشفون بعض المخلوقات البحرية المتحجرة ، او حتى جمجمة حيوان من فصيلة الدينوصور ، فان الشيء المكتشف كان يفسر بانه تكوين حجري شاذ ، وانه تقليد صخري قامت به الطبيعة لاشكال تشبه اشكال الكائنات الحية على سبيل الدعابة او الاغراب . وطوال الاعوام الخمسين التالية كرس العلماء المتصلبو الرؤوس كل وقتهم وقدرتهم على الابتكار من اجل أن ينكروا بتفسيراتهم الاصول الحقيقية للحفريات والعظام التي كانت تكتشف باعداد متزايدة .. وقد استطاع كوفيير ، وهو واحد من اعظم علماء الحيوان في القرن التاسع عشر ان يدمر حياة زميله لامارك العملية حينما وصم نظرية لامارك فيالنشوء والارتقاء بانها نظرية خيالية وغير علمية ، اما معتقده هو الاكثر علمية ، فكان يقول بأن كل مخلوقات ما قبل التاريخ (والتي كان وجودها قد اصبح معترفا به) قد بادت نهائيا ولحقها الدمار الشامل في سلسلة متعاقبة من الكوارث الطبيعية العالمية التي مسحت وجه الارض ونظفت البسيطة واعدتها لخلق الانسان وحيوانات العصر الحالي .

ومثل هذا النوع من التفكير والمواقف ليس هو الاستثناء فيتاريخ العلم ، وانما القاعدة . ذلك ان واحدة من المعتقدات الجامدة الرئيسية للعلم ، تقول بأن الرجل الذي ينكر نظرية ما ، يحتمل ان يكون اكثر « علمية » من هذا الذي يؤكدها .

(*) صباح عظيم (لندن ، ماكميلان ، ١٩٤٨) ص ٢٦٥ .

(**) ملحق جريدة « اوبزرفر » ١٠ مايو ١٩٧٠ .

وعلى الرغم من كوفيير فان افكار « النشوء والارتقاء » الخيالية قد احرزت الانتصار وسادت على غيرهـا من الافكار ، رغم ان الشكل الذي استطاعت ان تكون مقبولة به لدى العلماء في الغالب ، جعلهـا تبدو في صورة قوانين « البقاء للاصلح » الرتيبـة الميكانيكية . ان البطء هو قانون التغير . وان آخـر التطورات في علم الاحياء ، قد تنتهي بنـا الى تغيير تصورنـا عن الكون ، بقدر مـا غيرت عظـام الدينوصورات من تصورنـا عن الارض . وتلـك هي الفرضية التي يقوم عليهـا هـذا الكتاب . فقـد لا يكـون بعيدا ذلـك الوقت الـذي سنستطيع فيه ان نقبل ظاهرة « خفية » باعتبارها ظاهرة طبيعية مثلما تقبل الان وجود الذرات .

ومن اجل ان ازيـد هذا التاكيد وضوحا ، ينبغي على ان اتحدث باختصار عن علم السيبرناطيكا الجديد . فقـد « اختـرع » علـم السيبرناطيكا الجديد في عام ١٩٤٨ ، علـى يد عالم الطبيعة نوربرت وينار في معهد ماساشوستس للتكنولوجيا . انه علـم « السيطرة » والاتصال ، في الآلات والحيوانات (وكلمة Kyhernetes اليونانيـة تعني رجل الدفة في السفينة ، او الربان ، او الحاكم) . ان الكرة الطافية في صهريج المرحاض تطبيق بسيط للسيطرة السيبرناطيكية ، فحينمـا يمتلىء الصهريج تقطع سدادة الكرة انسياب الماء . وبقـدر ضئيل من الذكاء ، يمكنني ان اصطنع جهازا يحقق سيطـرة مماثلة لاغلاق صنابير حوض الحمام حينمـا تصل فيه المياه الـى منسوب معين ، لكي اوفر على نفسي مهمـة القيام والجلوس في الحوض لاغلاق الصنابير . ولكـن في العلم والصناعة ، فان العمليـة التي اريـد السيطرة عليهـا قد تكون اكثر تعقيـدا بدرجة مضاعفـة مـن صنابير حوض الحمام . فقـد يكـون الهدف من السيطرة ـ مثلا ـ عمليـة كيميائيـة لا بد أن تتطور في اتجاهات متعددة . وفـي هذه الحالـة ، لا بد ان استخدم حاسبة الكترونية تنفذ « برنامجا » معينا وضع لهذا الغرض من اجل اعدادهـا للتعامل مـع عدد كبير من المواقف ستطرأ في مسار العملية . ان بطاقـة حفر عليهـا عدد معين من الثقوب تكفي لاعطاء الحاسبة الالكترونية تعليمـاتها ولجعلها تنصرف مثـل المراقب الذي يطمئن على سير العمل سيرا صحيحا .

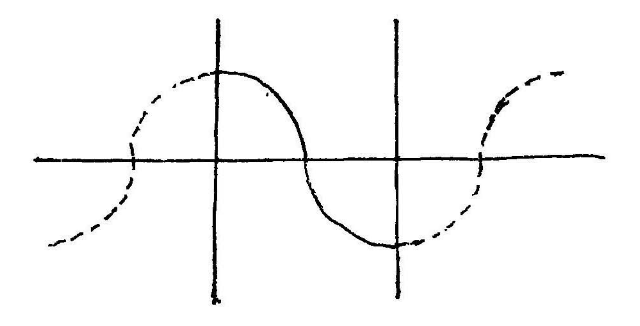
ومنذ اواخـر القرن التاسع عشر كـان قد أصبح مفهومـا ان الكائنات الحيـة تستمد خصائصهـا من خلايـا دقيقـة يطلق عليهـا قسم « الجينات » أي « حاملات الخصائص الوراثيـة » يحتويهـا كل من السائل المنـوي الذكري والبويضة الانثوية . ان لون شعري وعيني ، وحجم قدمي ، كلهـا امور تقررها الجينات ، ولكن لم يكن هناك من تبيـن الى حد اليقين الكيفية التي تقوم بهـا الجينات بهذا العمل . وفي منتصف الخمسينات من القرن العشرين اصبح من الواضح ان الجينات تشبه بطاقات الحاسبة الالكترونية بثقوبها المحفورة فيها . اما « الثقوب » فانهـا بالفعل جزئيـات من مادة ندعـى « د.ن.م » تترابط الواحدة منهـا بالاخرى على شكل لولب مزدوج ، في هيئـة شيء يشبـه لولبين التصق الواحد منهمـا بالاخر في اتجاهيـن متعارضيـن .

وكلما زاد ما نعرف عن هذا النظام الذي يشبه نظام الحاسبـة الالكترونيـة ، وهو النظام الذي يجعلنـا على مـا نحـن عليه ، كلما زادت مراوغته لنـا وزادت حيرتنا ازاءه . ان نظريـة داروين فـي النشوء والتطور تفكـر في عنق الزرافة وفي بدن الفيل وتفسرهمـا على اساس المصادفـة ، تمامـا مثلمـا قد تفسر شكـل صخرة اتخذت هيئة الوجه بان تشير الى فعل الرياح والمطر . ان العلم يكره « الغائية »، اي انه يكـره فكرة « استهداف » غرض معين . ان الصخرة لـم « تشأ » ان تنحت حتى تتخذ هيئة الوجه ، كمـا انـه لم يكـن من مشيئة الريح والمطر أن ينحتاها على هذه الهيئة ، انمـا حدث هذا ، هكذا ، وحسب . وبصـورة مشابهـة ، يكـره علمـاء الاحيـاء

(البيولوجيون) تلـك الهرطقة المعروفة باسم « النزعة الحيوية »، وهي فكرة ان الحياة بشكل مـا « تريد » ان تنتج مخلوقات اكثر صحـة وذكاء . انمـا تم انتاج مثل هذه المخلوقات لان الصحة والذكاء يصمدان للبقاء بصورة افضل من المرض والغباوة . ولكن حينمـا يتبيـن المرء ان الكائنـات البشريـة قد تم انتاجهـا بواسطـة بطاقـة حاسبـة الكترونية شديدة التعقيد ، يصبـح من الصعب عليـه ان يتجنب الانزلاق الى « الغائية » والتساؤل عمـن قـد يكـون وضع البرنامج لهـذه الحاسبـة الالكترونيـة .

في عام ١٩٦٩ ، القى عالم من علمـاء السيبرناطيكا ، هو الدكتور دافيـد فوستر ، محاضرة في المؤتمر الدولي لعلوم السيبرناطيكـا بالكليـة الملكيـة في لندن ، ورسم صورة لبعض الدلالات الفلسفيـة لتلـك الكشوف . أشار الى انه من وجهـة نظر عالم السيبرناطيكا، فان من الممكـن ان ينظر الى الكون باعتباره مجموعة من « المعطيات » وعملية جمع واحصاء وترتيب متصاعد لهذه المعطيات . ان ثمرة البلوط، علـى سبيل المثال ، يمكن اعتبارها « برنامجا » لشجرة بلوط . وحتى الذرة يمكـن ان نفكـر فيهـا باعتبارهـا بطاقـة حاسبة الكترونيـة حفر فيها ثلاثة ثقوب ، على اساس ان الثقوب الثلاثة هي (أ) عدد الجزيئات في النواة ، (ب) عدد الالكترونات التي تدور حولها ، (ج) طاقة تلـك الالكترونات ، كما يعبر عنها على اساس اصغر الجزيئـات المعروفـة من الطاقة ، وهـو الجزيء الثابت عند بلانك . يمضـي الدكتور فوستر قائلا : « من المؤكـد انـه يجب ان يكون واضحا ان الطبيعة الاساسية للمـادة هي ان الذرات هي « ابجديـة » الكون، وان التركيبات الكيمائيـة هي « الكلمـات » ، وان مادة « د.ن.م » هي ما يكـاد يكـون « جملة » طويلة ،او حتى كتابا كامـلا يحاول ان يقول شيئا مثل « فيل » او « زرافة » او حتى « انسان » .

ويمضي لكي يبرز ان وحدة البناء الاساسية في اي نظرية اعلام كهربائيـة هي الموجـة الكهربائيـة الواحدة ، والموجة الواحدة تتكـون من نصفين ، لانهـا تقاس بدءا من قمـة « نتوء » او انحناء ، الى قاع النتوء او الانحناءة التالية :



وهذا معنـاه ان الموجة نظام ثنائي او « مزدوج » ، والحاسبات الالكترونية تعمل على اساس الرياضيات الثنائية او المزدوجة . وهذه خطوة هامـة في بناء حجته ، لاننـا اذا فكرنا في الموجات باعتبارها المفردات الاساسية للكون ،اذن فسوف يمكنك ان تفكر في الحياة ـ وفي المادة كلهـا في الحقيقة ـ باعتبارهـا راجعة الى موجات تمت برمجتهـا بطريقـة سيبرناطيكية مـا .

ان ما يقوله يبـدو بالتاكيـد شبيهـا بالغائية . انني اذا رأيت عمليـة كيميائيـة معقدة ، توضع لهـا القواعـد ويتم التحكم فيهـا بواسطة الحاسب الالكتروني ، فانني سأستنتج ان شخصا ما قد وضع البرنامج لهذا الحاسب . والدكتور فوستر يقول ان الابنية المعقدة للحياة حول عالم السيبرناطيقا ، تتكشف لعينيه في صورة عمليـة جمـع واحصاء المعطيات وترتيبهـا بطريقـة تـصاعدية على نطاق هائل . وهذه مسالة حقيقـة علمية . وهـو يجد نفسه بالطبع يتساءل عـن

الذكاء الذي يقوم بجمع المعطيات واحصائها وتصنيفها تصاعديا ؟

يخطو الدكتور فوستر بعد ذلك اكثر خطواتـه اثارة للنقاش والخلاف . فهو يفسر موقفه بانه « كخبير في التسيير الذاتي ،حينما اصمم نظاما للسيطرة من أجل عملية ما ، فانه من البديهي ان تكون سرعة نظام السيطرة اكبر بكثير من سرعة حركات العملية المطلوبة ». فانت ، على سبيل المثال ، تستطيع ان تقود سيارتك لانك تستطيع ان تفكر باسرع من عمل الآلة ، ولو لم تستطع ذلك لاصطدمت سيارتك بأي شيء فورا . ولكن في هذه الحالة ، لا بد ان توضع البرامج للمادة في صورة ذبذبات ـ او موجات ـ اكثر سرعة بكثير من ذبذبات المادة نفسها . اي في شكل اشعاعات كونية . والكون مليء بالاشعاعات الكونية بالطبع . وفي رأي الدكتور فوستر فانه من المحتمل ان تكون تلك الاشعاعات هي القوة الكامنة وراء « برمجة » جزيئات مادة الـ « د . ن . أ » .

ولكن ، فلنلاحظ النقطة المحورية هنا . ان الموجة التي تحمل معلومة تختلف تماما عن الموجة التي لا تحمل معلومة مثلها . ان المعلومة « مفروضة » على بنائها عن طريق الذكاء . ان النتيجة التي يصل اليها الدكتور فوستر ـ رغم انها تقال بالحذر النموذجي للعالم تحيط بها هالة من المبررات والمقدمات ـ هي ان مستوى الذكاء المتضمن في بناء مثل تلك الموجة لا بد ان يكون ارقى بكثير جدا من ذكائنا الانساني .وهذا ايضا نوع من الاستقراء (او الاستدلال) العلمي وليس تخمينا ميتافيزيقيا . انه يذكر «تاثير كومبتون » في الطبيعيات ، الذي يزان عن طريقه طول الاشعة السينية عن طريق تركيز شديد للالكترونات ، والقاعدة المستخلصة من هذا القانون هي انك تستطيع ان تصنع ضوءا احمر من ضوء ازرق . « فالضوء الازرق الاسرع ذبذبة يضع برنامجا للضوء الاحمر ، وليس العكس » .

ان ما يقوله الدكتور فوستر لا يختلف اختلافا جوهريا عن حجة « الساعة » التي قال بها بالي BALEY ان « بالي » اللاهوتي قد قال انه حينما ينظر الى كيف تعمل ساعته ، فانه يتبين انها تدل على صانع ذكي ، وان الانسان ـ رغم كل شيء ـ اكثر تعقيدا من اي « ساعة » في الوجود. ومع ذلك فان الدكتور فوستر ـ اذا كنت قد فهمته ، فهما صائبا ـ لا يحاول ان يدخل الله من الباب الخلفي . انه اقل اهتماما بالنظريات التي تدور حول من يضع البرامج منه بالحقيقة التي توضح ان « ثمة » عملية برمجة تتخلل الطبيعة باسرها ، انه مهتم بالسؤال الذي يبحث عن الكيفية التي تحمل بها المعلومات الى مادة الـ « د.ن. أ » ، وان « الاشعة الكونية » تتقدم باعتبارها فرضية معقولة للاجابة على هذا السؤال. وهو يقول : « يقيم المرء صورة جديدة للكون باعتباره كونا مرقما او كون معلومات ، ولكن بسبب المؤثرات السيبرناطيكية العاملة فيه ، فانني اظن انني افضل ان ادعوه . الكون الذكي » .

انه لما يثير الاهتمام ان الدكتور فوستر لا يصل الى هذا الكون الذكي من خلال البدء بفكرة الغاية او الله ، مثلما يفعل المفكرون الدينيون ، وانما يصل اليه ببساطة ، عن طريق الاهتمام بالحقائق التي تعرفها الآن عن طريق البرمجة السيبرناطيكية للمادة الحية . ومن خلال هذا الاهتمام تبرز صورة للكون تتلاءم مع نظريات العلماء وعلماء النفس الاخرين خلال السنوات العشرين الماضية : تيار دى شاردان ، وسيرجوليان هكسلي ، س . هـ . وادينجستون، ابراهام ماسلو ، فيكتور فرانكل ، ميشيل بولاني ، نودام تشومسكي. ان ما يشترك فيه كل هؤلاء الرجال هو مقاومة « النزعة التصفيرية » التي اعني بها محاولة تفسير الانسان والكون عن طريق قوانين الطبيعة او سلوك فئران المعامل . على سبيل المثال ، يكتب عالم النفس ابراهام ماسلو قائلا : « يتمتع الانسان بـ « طبيعة اسمى » مما احتوته غرائزه باعتباره طبيعته الادنى ، الحيوانية .. » . اما نظرية الدكتور فوستر عن « الكون المرقم » ، فقد تكون اكثر جسارة من النزعة التشوئية عند هكسلي ووادينجتون ، ولكن الروح متشابهة بصورة جوهرية ، ليس من تناقض بينهما .

كل هذا يعني انه لاول مرة في التاريخ الغربي يستطيع كتاب عن « الغيب ومعرفته » ان يكون شيئا اكثر من مجموعة من الخوارق والاقوال السخيفة المجردة من المعنى . ان الدين والنزعة الصوفية والسحر ، تنبع كلها من نفس « الاحساس » الاساسي ازاء الكون : احساس مفاجيء بـ « المعنى » الذي يستطيع الناس احيانا ان«يلتقطوه» مصادفة ، مثلما قد يلتقط مذياعك محطة مجهولة دون قصد .والشعراء يشعرون باننا مفصولون عن المعنى بحائط سميك من الرصاص ، واننا احيانا ، ودون سبب ، نستطيع ان ندرك ان الحائط يبدو وكانه قد اختفى واننا فجأة مغمورون بالمغزى اللانهائي للاشياء . ان ايفان كارامازوف ، في احدى روايات دوستويفسكي ، يحكي قصة عن ملحد لم يكن يؤمن بالحياة بعد الموت ، وبعد ان مات ، حكم الله عليه بأن يسير الف مليون من الاميال على قدميه عقابا له ، ويرقد الملحد على الطريق رافضا ان يسير مليونا من السنوات ، ومع ذلك ، فانه بعد ليل قام فجر نفسه وتحامل على قدميه وسار المليار من الاميال على مضض . وحينما سمح له اخيرا بان يدخل الفردوس ، اعلن على الفور ان خمس دقائق يقضيها في الفردوس كانت تستحق ان يسير عشرة اضعاف ما ساره بالفعل . يضع دوستويفسكي يديه على هذا الاحساس الصوفي بمعنى يبلغ من الحدة درجة تجعله يفوق او يتجاوز اي شيء نستطيع ان ندركه ويستطيع ان يجعل « اي » مجهود نبذله يستحق العناء ويكتسب القيمة . انه الاحساس بالمعنى الذي يدفع الانسان الى ان يبذل اي مجهود . اما اذا استطاع ـ مثل الخاطىء الذي حكى عنه ايفان ـ انيلمح« المعنى » لمحة مفاجئة ،فانه جدير بأن يصبح منيعا على القتل لا يمكن قهره ، ويمكن ان يكون سير مليار من الاميال مجرد نكتة .

اذن فقد اتفق العلم الغربي دائما على ان هناك الكثير الذي عليه ان يكتشف في الكون ـ ولكنه بصورة جوهرية كون ميتوميكانيكي. ويمكن ان تقول ان العالم ليس سوى باحث مجيد عن الحوادث العارضة . والباحث عن الحوادث العارضة ، هو نفسه نتاج حادثة عارضة ، ولكن الانسان يحركه المعنى الى درجة اعمق بكثير مما تحركه الحوادث . لقد وجد عالم الكهوف القديمة ، الفرنسي نوربرت كاستيريت ان الكهوف السفلية في مونسبان جديرة بأن تكتشف مثيرة للاهتمام ، ولكن هذا الاهتمام لم يكن شيئا يذكر بالنسبة لما شعر به من الاثارة حينما وجد ان جدران الكهوف كانت تغطيها رسوم الاسود والجياد ، فتبين انه قد عثر بالصدفة على فن انسان الكهوف في عصور ما قبل التاريخ . ان اكتشاف نتاج الذكاء لاكثر اثارة على الدوام من اكتشاف نتاج الحادثة العارضة .

فلو ان دافيد فوستر على صواب ، او حتى لو ان رايه هو نصف الصواب ، فانها البداية لعصر جديد في المعرفة الانسانية ، ذلك ان العلم سوف يكف عن ان يكون بحثا عن حادثة عارضة لكي يصبح بحثا عن معنى . انه يكتب قائلا : « ان الكون بصورة كلية بناء متكامل من الموجات والذبذبات ، مضمونها الداخلي هو « المعنى » .. معترفا في الوقت نفسه بأن ادواتنا ما تزال غليظة الى درجة تمنعنا من ان نحل شفرة المعاني التي تحملها الذبذبات عالية التردد .ولكن ان نؤمن بأن المعنى موجود هناك ، وانه من الممكن حل شفرته ، فان هذا يمثل خطوة هائلة الى الامام ، تكاد تساوي اللمحة الخاطفة التي القاها الملحد على الفردوس .

وبسبب اهدافنا القريبة ، فان هذا الايمان ، يمدنا ايضا بصورة للكون تفسح مكانا لـ « الظواهر الخفية » مثلما تفسح مكانا

للطبيعيات الذرية . في الماضي كانت المشكلة دائما هي اين نرسم الخط الفاصل بين نوعين من هذه الظواهر . فاذا كان بوسعك ان تقبل الاتصال العقلي عن بعد Telepathy والاحاسيس او الاحداث المتنبئة بالمستقبل ، فلماذا لا تقبل التنجيم وقراءة الحظ او المسوخين الى ذئاب متوحشة ومصاصي الدماء والاشباح والساحرات يطلقن التعزيمات اللعينة ؟ لانك اذا كنت تزعم ان تناقض المنطق العلمي ، فيمكنك اذن ان تأخذ سعدا بسعيد او ان تلقي جزاء اللص لسرقة عنزة مثلما تلقاه لسرقة حمل ، فانظر كم من الاشياء المستحيلة يمكنك ان تؤمن بها قبل ان تتناول طعام الافطار .

ومن الجانب الاخر ، فان نظرية اندكتور فوستر تتفق مع انواع الحدس لدى الشعراء والمتصوفة والمؤمنين بالظواهر الخفية : تتفق على أن ثمة « معاني » تطفو حولنا ، انقطعت الصلة بيننا وبينها بصورة طبيعية بسبب العادة ، والجهل وعتامة الحواس او بلادتها. ان ما يدعى بالموروثات الخفية ، قد لا تكون اكثر من خرافة متوحشين جهلة ، ولكنها يمكن ايضا ان تكون محاولة لتفسير واحدة من تلك النظرات الخاطفة كاللمحة ، تلقى بالصدفة على المعنى الذي يصل الى اعماق ابعد من التوافه اليومية ، في اللحظة التي يلتقط فيها جهاز المذياع الانساني ذبذبات غير معروفة . وعلى اي حال فان كلمة « الغيب » تعني « المجهول » ، الخفي . او ربما تم تكن تلك النظرات الخاطفة عارضة ولم تحدث بالصدفة، ربما كان « الكون » الذكي يحاول ان يتصل بنا ، ان يتواصل معنا .

ولكن سواء كنا نريد ان نمضي الى هذا المدى ام لا نريد ذلك ، فان هناك احساسا بالحرية في كوننا قادرين على ان نقبل ان الكون مليء بالمعنى الذي نستطيع ان ندركه لو اننا تحمسنا لذلك وبذلنا من اجله ما يتطلبه من جهد . ويعبر برتراند راسل عن الاحساس نفسه في كتابه « تطور فلسفي » حينما يروي كيف وصل الى رفض الفكرة الكانطية القائلة بانه ليست هناك « حقيقة » في العالم الخارجي ، خارج ذات الانسان : « باحساس بالهرب من سجن ضيق ، سمحنا لانفسنا بان نظن ان الحشائش خضراء، وان الشمس والنجوم سوف تكون موجودة اذا لم يكن هناك من يشعر بها او يحس بوجودها ، وسمحنا لانفسنا ايضا بان نظن ان ثمة عالما لانهائي الزمن ، متعددا ، من المثل الافلاطونية .. »

لا بد للانسان ان يؤمن بالحقائق الواقعة خارج ضالته هو الخاصة ، خارج « تفاهته اليومية » اذا كان له ان ينجز اي شيء له قيمة أو يستحق الانجاز .

ويصل بي هذا الى واحدة من القضايا المحورية لهذا الكتاب . فمنذ عام ١٨٨٧ أشار ماكس موللر ، محرر كتاب : « كتب الشرق المقدسة » أشار الى انه (*) بسبب كل الدلائل الممكنة ، فان اسلافنا منذ الفين من الاعوام ، كانوا ان يكونوا مصابين بعمى الالوان ، مثل معظم الحيوانات الآن . « لم يعرف اكسونوفون سوى ثلاثة من الوان قوس قزح ، ولم يعرف ديموقريطوس سوى اربعة الوان منها - الاسود والابيض والاحمر والاصفر » . ومن الواضح ان هومير قد ظن ان للبحر لون النبيذ . وليست هناك كلمات تدل على الالوان في حديث الشعوب الهندو اوروبية . ويمكننا اذن ان ندرك السبب الذي دفع الاسكندر المقدوني ، تلميذ ارسطو ، الى ان ينفق حياته في غزو العالم . فلا بد انه كان عالما واحد اللون كئيبا ، لا تمييز فيه بين حمرة النبيذ وزرقة البحر الخضراء ، وخضرة الحشائش الزمردية ، وزرقة السماء العميقة . بل ان السبب في مثل هذا العمل مفهوم

(*) علم التفكير (نيويورك ، سكريبنرز) المجلد الاول ص٢٩٩. واقتبسها ايضا ر. م بيوك في « الوعي الكوني » . (نيويورك - ١٩٠١) ص ٢٨ .

من الناحية البيولوجية . كانت الحياه قاسية وحشية عنيفة ، ولم تكن للقدرة على ادراك الفروق الحاسمة بين الافكار والالوان من قيمة تفيد في البقاء على قيد الحياة . وقد كان الاسكندر خلاقا مليئا بالحيوية ، فاي شيء اذن كان امامه ان يفعله سوى ان يغزو العالم، ثم يبكي حينما لا يبقى امامه ما يمكن غزوه ؟

ولكن القدرة على الاستمتاع بـ « الذبذبات الحاسمة » تمثل جانبا هاما من متنفساتنا الحيويه . ان رجلا لا يستطيع ان يقرا ، سوف يقضي وقتا بالغ الكآبة حينما يضطر الى ان يقبع في المستشفى بعد جراحة خطيرة ، بينما قد يجد الرجل الذي يحب القراءة أن الكسل لذيذ وممتع . ان الضجر هو الافتقار الى القدرة على تسجيل الذبذبات الحاسمة . وتعريف الكيان العضوي الحي هو انه كيان عضوي قادر على الاستجابة لذبذبات الطاقة . وهذه الذبذبات تكون « المعاني » . فسواء كنت مسترخيا امام نار المدفأة ، او استمتع بكاس من النبيذ ، او انفعل بسماع سيمفونية ، او اشم رائحة الحشائش المقطوعة وأنا أجزها في الحديقة ، فانني اتلقى في كل حالة « معاني » وأسجل ذبذبات . ليس الفارق الهام بين الرجل وكلبه فحسب هو ان الكلب مصاب بعمى الالوان ، وانما الفارق الهام بينهما هو ان للرجل مجالا اوسع بكثير للاستجابة فيما يكاد يكون كل ميدان .

كلما ازداد رقي شكل الحياة ، ازداد عمق قدرتها على تسجيل المعنى ، وازدادت قوة قبضتها على الحياة . كان المعنى بالنسبة للاسكندر مرتبطا بالغزو ، وحينما بلغ الحد الاقصى للغزو ، كان ايضا قد بلغ الحد الاقصى لطاقته . كان قد غزا العالم وهو في الواحدة والثلاثين . ومات في الثالثة والثلاثين .

والارتقاء ببساطة هو القدرة على تلقي وتسجيل المعاني الموجودة بالفعل . ان الازرق والاخضر قد وجدا ، حتى وان لم يكن اكسنوفون قد استطاع ان يميز بينهما . ونحن نرتقي على الدوام في قلب عالم يصبح على الدوام اكثر فتنة وسحرا كلما تعلمنا ان نتلقى وان نسجل ذبذبات جديدة . ولا شك ان البشرية ، بعد الف سنة اخرى، سوف ترى كونا تتيه فيه الابصار ، يتلالا باثني عشر لونا لا وجود لها بالنسبة لنا .

اذن ، فلا بد ان يكون واضحا ان زيادة في « حدة الذهن » انما هي ارتقاء « نحو الداخل » . ان عامل اصلاح الساعات في فترة التمرين ، يبدأ باصلاح الساعات الدقاقة الكبيرة ، ثم يتدرج ببطء حتى يصل الى ادق الساعات واصغرها . انه يطور نوعا متزايدا من السكينة والتركيز ، وهذه ميزات « داخلية » .

لقد بلغ الانسان نقطة في ارتقائه اصبح عليه فيها ان يرتقي من الساعات الدقاقة الكبيرة الى الساعات الصغيرة ، من الكبير الى الدقيق . لا بد له ان يلتفت الى الداخل بصورة متزايدة . وهذا يعني ان عليه ان يلتفت الى المستويات الخفية من وجوده ، الى « الخفي » ، الى المعاني والذبذبات التي كانت حتى الآن اكثر دقة من ان يقبض عليها بيديه او ان يدركها بعقله .

***

لقد قسمت هذا الكتاب الى ثلاثة اجزاء . ورغم انني كنت انوي اصلا ان اعطيه شكل التاريخ ، فانني شعرت انه يحتاج الى قسم تمهيدي طويل - قسم استطيع فيه ان أقرر انشغالاتي السابقة وما اقتنع به . لقد قلت ان ثمة علاقة بين القدرة على الخلق وبين الحساسية النفسية Psychic . فالشخص الخلاق يهتم بمعالجة قدرات العقل غير الواعي ،وهو في قيامه بهذا ، قد يصبح مدركا لوجود قوى لا تكون - عادة - في متناول الوعي . وهذا هو

السبب الذي دفعني الى تضمين هذا القسم مناقشات حول « الكتاب الصيني للتغيرات CHING I وحول اوراق اللعب من نوع « التاروت » .

اما القسم الثاني فهو التاريخ الذي كنت قد بدأت اكتبه ، كان يمكنني ان اختار اما تاريخا للسحر بوجه عام ، او تاريخا للافراد من اصحاب القدرات الخارقة والقادرين ، مع الخلفية التاريخية اللازمة لربط الواحد منهم بالاخر . وقد اخترت الطريق الاخير .

اما القسم الثالث من الكتاب فقد اهتم بالموضوعات التي لم يكن لدي ما يكفي من الوقت الا تلمسها من بعيد في القسم الثاني: السحر ، والمسخ الى صورة الذئب ونزعة مص الدماء ، وتاريخ النزعة الروحانية ومشكلة الاشباح والارواح الشريرة . اما الفصل الاخير من الكتاب « لمحات » فيعود الى موضوعات هذا التمهيد : المسائل الميتافيزيقية التي تثور من خلال النزعة الغيبية ، مشكلة الزمن ، وطبيعة « قدرات الانسان الخفية المستترة » .

هذا كتاب كبير ، وهو تاريخ شامل بقدر ما يمكنني ان اجعله شاملا . ولكن سرعان ما اصبح واضحا لي انه كان من الاساسي ان يصبح اعرابا شخصيا عن اقتناع بشيء معين اكثر من ان يكون دائرة معارف . هناك دوائر معارف جيدة ، تبرز من بينها بوجه خاص « دائرة معارف العلوم الغيبية » التي الفها لويس سبنس. وهناك ايضا « دائرة معارف علوم الخارق غير الطبيعية » ،وهناك الكتاب الطموح الواسع المجال : « الانسان والخرافة والسحر » ، الذي لم يكن — في لحظة ذهاب هذا الكتاب الى المطبعة — قد بلغ سوى المجلد الثاني من سبعة مجلدات . ولكن الامر الذي يمكن ان يؤخذ على تلك الكتب هو انها تميل الى ان تكون تكويما للمعلومات التي لا شيء يربط بينها . وقد وقعت كتب المرحوم تشارلز فورت في الخطأ نفسه ، لقد انفق حياته في جمع التقارير الصحفية عن احداث غريبة ولا يمكن تفسيرها من اجل ان يزعج العلماء ويبث في عقولهم القلق ، وثم فشل في ان يصرف انظار احد عما بين يديه لكي يشغله بما جمعه باستثناء المعجبين به ، لانه لم يفعل اكثر من انه القى في وجوه الناس بجبل هائل من المعلومات والحقائق مثل كومة من خشب الوقود آملا أن تقوم هذه الحقائق وحدها باقناع الناس . ولكن الحقائق لا تفعل هذا . وربما كنت — في هذا الكتاب — قد اسرفت في النقاش ، ولكن هذا السبيل لاح لي أسلم السبيلين .

في فصل من الفصول الاولى ، اتحدث عن المصادفات ، ومن المؤكد انه كان هناك ما يكفي من المصادفات في تأليف هذا الكتاب. فذات مرة ، بينما كنت ابحث عن معلومة محددة ، سقط كتاب من فوق احد الرفوف وانفتح على الصفحة المطلوبة . وكانت شذرات من بعض المعلومات المطلوبة تصلني او تظهر لي في طواعية كانت تستفز أعصابي احيانا . واعتدت على هذا بعد فترة من الزمن ، بل بدأت اشعر بنوع من الاستياء الخفيف حينما تروغ مني معلومة لمدة عشر دقائق او نحوها . الامر الذي يبدو انه يوضح ما ارمي اليه من انه اذا ما تدخلت الظواهر والدوافع والقوى غير الطبيعية بشكل اكثر من اللازم في الوجود الانساني ، فان ذلك قد ينتهي باعتيادنا الكسل.

وفي اثناء البحث وتأليف هذا الكتاب ، تغير موقفي انا الخاص من الموضوع . ورغم انني كنت اشعر دائما بشيء من الفضول ازاء « الغيب الخفي » وسبل معرفته — حتى اصبح لدي اكثر من خمسمائة مجلد تبحث كلها في السحر وفي الظواهر والقوى والدوافع غير الطبيعية — فان « الغيب ومعرفته » لم يكونا ابدا من بين اهتماماتي الرئيسية ، مثل الفلسفة أو العلم او حتى الموسيقى . وبينما لم اكن شكاكا بصورة كاملة ابدا ، فقد شعرت بأن اكثر الناس مهتمون بالدوافع والقوى غير الطبيعية لاسباب بعيدة عن الصواب .

لقد كانت جدتي مؤمنة بالروحانيات ، ولم يترك لدي الاشخاص القليلون من الروحانيين الذين قابلتهم من خلالها اي انطباع يجعلني اعتبرهم أذكياء او متيقظين بصورة غير عادية . وقد حدث منذ ما يقرب من عشر سنوات ان تحدث الي « ج . ويلسون نايت » — وهو متخصص في شكسبير — حول النزعة الروحانية، واعارني بعض الكتب في هذا الموضوع ، ومرة أخرى لم استطع ان ادفع نفسي الى الاهتمام العميق به . ولم يكن الامر امر رفض لما قاله عنه ، فقد كنت اكن ما يكفي من الاحترام له ولثقافته في ميادين اخرى لدرجة تجعلني اتقبل فكرة انه لم يكن يعرب عن امانيه واحلامه اكثر مما يفكر تفكيرا جديا . ولكنني كنت أشعر بأن الاهتمام بعوالم الفلسفة او علم النفس ، يجعل من « توافه » الامور ،هذا الاهتمام بالحياة بعد الموت ، مثلما هو الامر في الاهتمام بالشطرنج او بالرقص . كانت تفوح من هذا الموضوع رائحة الشيء « الانساني » ، ولا شيء غير الانساني » . وقد عبر البير كامي عن هذا الاحساس نفسه حينما قال : « لا اريد ان اؤمن بان الموت يفتح بابا على حياة اخرى ، الموت بالنسبة لي ، باب مغلق.. تحاول كل الحلول التي قدمت الي ان تأخذ من الانسان ثقل حياته . انني اذ أرقب تحليق الطيور العظيمة وانطلاقها الى السماء في بلدة « جميلة » ، فانني لا أطلب لحياتي الا مثل هذا الوزن المحدد اليقيني دون غيره » ، وقد امتلك هيمنجواي هذا الاحساس نفسه حينما كان في افضل حالاته . انه احساس بان حياتنا تستطيع ان تقدم : « حقيقة وكثافة » تجعل اكثر العواطف الدينية عادية تبدو تافهة مضللة في حد ذاتها . فالروحاني يقول : « من المؤكد ان هذه الحياة ستكون بلا معنى لو انها وصلت الى نهايتها الختامية بالموت . » اما اجابة كامي فتقول بانه اذا تقبل الحياة بعد الموت باعتبارها « اجابة » او « حلا » لمشكلة هذا الخلو من المعنى ، فانه يفقد حتى احتمال وقوع اللحظات التي تصبح فيها الحياة « حقيقية » بشكل غريب .

ولم يحدث الا منذ عامين فحسب ، حينما شرعت في البحث المنتظم من أجل هذا الكتاب ، ان تبينت التماسك والصلابة الملحوظة للادلة على امور من نوع الحياة بعد الموت ، والتجارب الخارجة عن حدود الجسد (مثل الرؤية الوهمية) والتناسخ او اعادة التجسد . لقد ظل موقفي دون تغيير بمعنى أساسي . فانني ما زلت اعتقد ان الفلسفة — اي البحث عن الحقيقة عن طريق الحدس المؤيد بالذهن — هي الوسيلة الاكثر جدارة بالاهتمام والاكثر اهمية من مسائل «الغيب ومعرفته » والاسئلة التي يطرحها . ولكنني اذ شرعت في وزن الادلة واختبارها ، بهذا الاتجاه العقلي غير المتعاطف فانها قد اقنعتني بأن المزاعم الاساسية للنزعة الغيبية هي مزاعم صحيحة . ويبدو لي ان حقيقة الحياة بعد الموت قد أصبحت قائمة بعيدة عن متناول اي شك معقول . انني أتعاطف مع الفلاسفة والعلماء الذين يعتبرون هذه الحقيقة مجرد هراء عاطفي ، لانني — بشكل مزاجي — اقف في صفهم ، ولكنني اظنهم يغلقون عيونهم امام ادلة جديرة بان تقنعهم لو انها كانت تتعلق بعادات التزاوج بين فئران التجارب البيضاء او سلوك جزيئات اشعة الفا .

من خلال القرون القليلة الماضية ، جعلنا العلم ندرك ان الكون اكثر غرابة واكثر اثارة للاهتمام مما ظنه اسلافنا ، وانها لفكرة ممتعة ان نقول ان هذا الكون قد يتضح انه اكثر غرابة وكثر اثارة للاهتمام مما يعلن العلماء عن استعدادهم للاعتراف به .



مهدي بندق

عن الحرب والحروف والمدائن الجديدة

الكراس الصحراء
لا يقرأهـا المطر العاشق
والكراس الزيَّف
لا تقرأها الشمس الطفلـة
حين يعلمهـا الله الاسماء

وانا .. آخر شعراء الكلمات ،
اكتب للمعتوهين الاموات ،
المدفونين بقاعـات الثلج
ابحث في قيعان الوجد المسَّاقط من اعينكم ،
تصفيقا وهتافا ، عن حرف متوهج
أبذر نفسي اضواء بنفسـج
وترانيم صـلاة
ابذر نفسي رعبا في شريان المعبد
(يحصده الكهنة انساما ناعمة
للقـراء المسترخين ...)
يا جثث الازمنة المرتدة
يا أطـر المتحف ..
يا اصحاب الكهف
الشعر على صدري كابوس الليل الملتف
حبلا في عنقي .. يجذبني كالثور الاعمى ..
للارض الجدبـاء
فأدور اناجي الغربة في ساقية الطين
اسألها عن قطرة مـاء عذراء
عشقت هذا النهر الوثني الملعون
ضاجعها فـي الصيف
فضَّ بكارتهـا ،
ثم رماها في صحراء الرمل المسنون

وانا اخر شعراء الكلمـات
ابكي ، وادور الدورات المنتكسـة
في ساقية الاعياء التعسة
أسقط ثورا من ورق محزون
ضاعت منه الحلبة قبل لقاء الفارس
اسقط شمشونا مجزوز الخصلات
هدمته الاعمدة العبثية
وانا اخـر شعراء الكلمـات
العبث امامي ، والعبث ورائي
احرقت سفين العالم في كلماتي الخشبية
صنَّعت حروفي جسرا في غابات الموت
كيما يعبرني جيل الشعراء المردة
بوجوههم المربـدة
الريح قوافيهـم
وبحورهم النار الخضراء الصوت
فأنا اخر شعراء الكلمـات
تأكلني ايـام الخوف ،
وتمضغني بيـن نيوب اللاجدوى الزرقاء ،
وبين ضروس الاخطاء
أتسمر خلف القضبـان
في قلبي ، معتقل الكلمات ـ الافعال ، اصيح
أنا اتبرأ من هذا القلب الخافق
الا ان يتفجـر شعرا ـ شلالا
يجرف مدني ، يفرقها
شعرا نارا ، يحرقها ويخلقها ،
مدنا للشمس ..
ويحرثها ... للمطر العاشق

هامش

يمكنني ان اتحدى بالاشعار
القيد اللاهب والاعصار
والزيف المضروب على شفتي ، سيفا صدئا
والصمت الآمن ـ في ارحام الاسرار ـ
من تخصيب الشهـوة والدم
يمكنني ان اتحدى الجوع المتخم
حين يقدم في اطباق الوالي الضاحك
يمكنني ان اتحدى العالم وحدي بالاشعار
حتى حين اكون بجوف النار
اتقلب في عرصات جهنم

ينشق صراخي لغة سحرية
(تنويعات من بحر المتدارك)

لكنــي ...
حين أكون حزينا في وطنــي
ـ ودواما كنت حزينا ـ
اخرج في طرقات الشعر الليلية
يدحرج قلبي فوق الارض العارية الملساء
صــورا خرساء

قراءة من سفر التاج

تدفقي ، تدفقي يا عاصفــة
تخلقي من عــاري
يا لحظة النهايــة المرتجفة
مضجاعك الرصاص ، والفراش قلبي
هل تنجب الاحشاء ـ بعد ـ
وليــدة مزيّفــة ؟!

✶

كنا نجلس في حجرات الاخضاع
بين النطع وبين السيف
لكنا خفنا ان ننظر او نسأل او نرتاع
خفنــا حتى الخوف
خدّرنا انفسنــا بالاجماع المبتاع
وسبحنــا في لوحات الانهار العذبة
.. فوق الحيطان الخربة
وتركنا سادتنا حين استبقوا نحو القبة
يلقونا بغبار الكلمات الكذبة
حتى تدفن في مقبرة الصمت

✶

قرات في بريق التــاج
فلسفتك يا حجــاج
(أرى رؤسا اينعت
وازهرت ، واثمرت
وكلمــا هممت ان أجتثهــا
تساقطت ، تساقطت)

✶

حين أستيقظت ..
لمحتك يا حجاجَ على أعيننا ، في بحات حناجرنا ،
في دمنــا ...
عينيّ فقأتُ ، وصوتي أخرست ،
ومن دمي الملعون تبرأت
اصبحت وحيدا في بلدي
في مقهايَ ، وفي بيتي
(يا حقــا لا يأتيه الباطل)
يا قاتل .. أنت : الهي
لكنــي .. الحَدَث

✶

حدثتكـم عن العقائد التي تموت ،
والعقائد التي تريد ان تنبعثا
لكنكـم دفعتموني في عتاب
وقلتم في لهجــة مُحنثــة
« لا تتغــابـ
نعرف ان الحجاج تراب
لكنا نخشى ان تغضب روح البطل الغائب
قدّسها اللــه
ذلك أنّا خِفناه ، خفناه
حتى أحببنـــاه
ولان الحب فناء العاشق في ذات المعشوق
احببنا الحجاج ، فنينا في الحجاج
أصبحنا نحــن الحجاج

بلــداه
رأيتك في مدرسة التاريخ الشرقي الباهر
عند حديقــة هايدبارك
في ألعاب الصبية . .نعيا ساخر
ـ أعرف بلدا فيه المغلوب يعانق سيف الغالب
ويصفق فيه المقتول على مشنقة الجلاد
وينصِّب فيه القاتل ربا للحب
ـ هل ... بلد المنتحرين ؟
ـ ندعوه البلد المضحاك

بلــداه !
هل أنتِ ؟
أصرخ يا بلداه ، ولكن لا يصلك صوتي
فكأني طير ينزف دمه في شرك الصمت
فاذا ناداك سخرت
وقصصت جناح النبت الطالع ،
وهويت ..
للموت

خطــاب

احسدكم يا شعراء الزيتون المقتال
وقصائدكم فوق رصاصات الاعدام بيارق
تنبض نبض القلب العاشق
وأنا ، في غرفة هذا الامن الخانق
بين الاهل المجتمعين على مائدة الكلمات البلهاء
اتنزى جوعــا
اشحذ من بيدركم سنبلة خضراء
اشحذ من عند اللحم المتمزق حرفا
علي القاه صديقا .. في رحلتي الشتوية

القاهرة

بدر الديب

الأصل والفراق

مسرحيـــة

يدخل الابن الى المقبرة الواسعة ونراه يخطو باحثا عن امه ، وهي جالسة عند القبر ، بيضاء صغيرة في جلابيبها السود لا تكاد ان تحس ان فيها ملاء آو ان لها جسما .

والسماء من ورائها زرقاء واسعة فيها غروب خفيف كدموع العين ، وليس في المقبرة احد .

الام امامها سلة صغيرة فيها اقراص من اقراص الرحمة و« شوريك » (١) وبين حين وحين يحط عند اقدامها غراب .

والشاب يخب في جلباب من صوف وعلى رأسه طاقية صغيرة وتحت ابطه عود ضخم من شجرة .

الابن : اما آن ان نعـود ؟

الام : هيـه ؟

الابن : اما آن ان نعـود ؟

الام : لقد كنت اقول له ذلك ، في كل عصر ، عند راس الحقل .

الابن : اما آن أن نعـود ؟

الام : وهل اذا عدنـا يعـود ؟

الابن : اما آن ان نعود (ضجرا) ؟

الام : لقد قال لك ارفق بامك .

الابن : امي ، هيا ، هيا نعود .

الام : انا لا استطيع ان اقوم ،

ان اعـود ،
ان اذهب الى البيت الواسـع الكبيـر
فلا يسعل فيه ولا اسمع خطوه ودعاءه الشاتم ،
ان اعـود
وحدي للظلمة وللبيت الواسع وجدرانه الطين ،
لقد تخلل الطين تراب وجفاف ،
وقد اكله الجفاف والتراب
ان رجلي يرقد ويسرى فيه التراب ،
اما زلنـا في التحاريق ،
ان المياه تنسحب في الترع ، والتراب يغطـي وجهه وبدنه ،
ما اشق التراب ، كالعرق الجاف ، لا نور ولا رخاوة .

الابن : لقد قلت لك هيا ، هيا نعود (بعنف)

الام : ما اشـد حرصك على الاشيـاء ،
على الطرقات والبيوت المقامة ،
يا ابني ، انا وانت ،
لم يعد ما تحويه الجدران لنا ،
لقد مات عنا الليل ووئد في حلقنا النهار .
ان شعاع الشمس لا يسقط لنا على مياه .
ولم يعد يسقط علينـا بلح ،
ان حقنا اكله التراب
اما زلت قادرا على المسير في الطرقات ؟ ..

الابن : امي ، الن نعود ؟ (في ضراعة خائفة)

الام : يا ابني انت مـا بقي لي من حياة ،
لقد اغلقتك عليّ كالباب الكبير ،
ولم اعد ارى وجهك .
انت كبير ، كبير لانك حي .

الابن : امي ، لا تجعليني احس انني منه .

الام : لقد قال لي ذات يوم « انه ابني ، ليس لك فيه شيء » ي .
انا اذكر ذلك ، فلقد حزنت وطرحت جنيني من بعدك .
ولكنني لا اغضب اليوم من ذلك ، انا اتكسر على حديثه اسى
كسور الحقل تحنيه السنون .

الابن : ولكن ماذا وراء ذلك ؟
الـن نعـود ؟

الام : انا وراءه ، انت بابي وانا حياتك .
ليس لك طريق الا عيوني المتكسرة لا تعكس شيئا .
لقد لبست لك الجلابيب السـود
خوضني ، لا ، لا تخوضني ،
انا ارض بور مروية ليس فيهـا الا وحل وجذور غرستها الاقدام

الابن : امي ، لقد عزاني امام المسجد ، وانت قد صنعت الرحمة
وعلى روحه قرانا القرآن
وجاءنا العمدة في الليل ، وكل الناس
وخرجت الى بيتنا الصواني وتاخر الليل وانفض الناس ،
قومي ، الا نعود (ضارعـا) .

الام : نعود ، نعـود ،
كما يقرأ القرآن على كل ميت وكما يخرج العمدة وراء كل صندوق .
لا لن اعود ،
لقد بت حتى الخميس اتقلب في الظلم كرغيف يحترق ،
وصنعنـا لـه الرحمـة ودفعتنـي النسوان ،
ولكني لا استطيع ان ادفع له شيئا ،
لقد بعد عن يـدي ،

---

(١) نوع من الشطائر ، تحشى بالبلح او مطبوخ العسل او الجبن فـي ريف مصر .

نعم انظر ، يــدي
انت لك عيون ، وانا لي يد ،
وليس له عيون وليس له يد ،
ان الناس ياكلون لــه الرحمــة
لقد ملأ فمه التراب وتحجر في عيونه العظم .
لقد ضاع منــا وابتعــد
كالطريق الخشن الجاف .
يا ضيعــة ما كان لنا من نور وقوة في الساق

(عبر في طرف المقبرة رجل يسحب بقرتيــن
ويذهب ناحيــة الغروب)

لقد داس قبره البقــر
وغربت الشمس دون ان تنظر اليه
كان قويا منصوبا كهذا الفلاح البعيد ،
وانحدر الينا ذات مساء وطلب يدي،
يدي ، انظــر ،
واخذني اليه ، واقام بئرا في الفناء ،واحضرت حول البئر الحقول
مــع السنيــن ،
ثم حمله الناس في صندوق وتركك لــي ،
ولكنك له ، لست لي (في حيرة واقفة)
(يقدم عليهم من زاويــة الفلاح الحفار في جلبــاب
ابيض خفيف وهو رجل فــي الاربعين قوي متين
فيــه نبــل وصحــة)

الابن : قلت كفى هذرا وهيا نعود ،
اسحبك الى البيــت
انك حمقاء ، خرفــة ،
اجننت (يحاول ان يسحبها بالقوة من جلستها ولكنها تسقط
من يده كالثيــاب الفارغــة)
هيا ، هيا ، هيا يا امراة .
(للحفار) : لقد جنت ، انهــا لا تريد ان تغادر القبر (يصبح
الحفار قريبــا منهــم)
الام : جننت ، (تستمر)
كشبابيك العمدة الملونة والشمس الحمراء وراء التلال
لقد اقتلعوا النخل وغمسوا رؤوسه في الآبار
وشيخ الخفر يصطاد البلح (تضحك)
وانا وضعته في الصندوق مع حلى فلبس الخلخال واختنق .
الحفار : (في صوت فاهم)
اسمعي يا امراة ، دعي العند واسالي نفسك
الا يمكنك ان تقومي .
الام : يمكنني .. ان ارى يدي .
الابن : (للحفار) ساتركها لك ، انت اقدر عليها
(ويسير ناحية القرية منحدرا)
الام : (صارخــة وراءه)
قل للناس انني جننت
وقل لهم ان يسرعوا الى هنا فقد اغرقت حقولهم المياه .
اسمع (محذرة للحفار)
(ثم تعول) انت تسمع وهو ينظر وانا هنا جالسة .
الحفار : ساجلس انا ايضا الى جانبك .
الام : اولا تذهب الى القريــة .
الحفار : (بغموض) لا ..
الام : (تساله في عجب وقد اصابتها خفة)
او تجلس هنــا ،
الحفار : نعم .... (باسما في هدوء)

الام : الى جانبــي .
الحفار : نعــم ..
الام : ماذا تريــد ؟
الحفار : لا شيء .
الام : قل لي ، هل تحرك وانتم تضعونه في القبر ؟.
الحفار : لقد رايت انت كل شيء .
الام : ولكنك لمست جسمه، اكان دافئا ؟
الحفار : نعــم ..
الام : كالفرحــة المذبوحــة ..!
الحفار : لا .. ككل ميت (وهو مطرق الى الارض)
الام : (تساله كطفلة) لماذا يظل الميت دافئا ؟.
الحفار : (يجيبه من الارض) لان اهله حزانى عليه .
الام : (مقررة) انا اهل الميت .
لقد قالــوا لــي ان حزنــي عليه لا ينفــع .
الحفار : هل قالوا لك ذلــك ؟
الام : وقالوا انني ابكي على ميــت
وان الحزن كالقرآن خالــد في الكلمــات
الحفار : ولهذا تنذبيــن ...
الام : انت تعلم ، انــا لا اندب
بل ابكي هذا السور الذي كشفني للناس
وحط في عيوني حجرا ومشاهد
الحفار : لقد قلت للناس بعد كل ميت
عظم الله اجركــم
ولا استطيع ان ادعو الله ان يؤجرك على وفاته .
فلقد اغرقت الاجر بحدوث المصيبة .
الام : لقد قلت للبحار لا تفتح القناطر
ولكنه اغرق الحقول وتركني ازرع الارز بلا عيدان ،
انا في المياه اخوض قد كشفت عن ساقي ووجهي
ليس لي قنــاع ولا رجل .
الحفار : اسمعي ، ليس للارز ميعــاد ،
انه يندفع في المياه وفي صور الكارثة ..
الام : لقد تركت الحصاد لابنــي
ولا اراه الا خائضا في الماء يمسك النجوم ويحلم بالبلح ..
الحفار : اسمعي (مكررا يريد ان يقول شيئا غير ما كان يريد) لقــد
قلت لابنك ان يتزوج .
الام : (لم تسمعه ــ مكررة مــا تريــد ان تقول)
انا لا اراه الا خائفا في الماء يمسك النجوم ويحلم بالبلح .
الحفار : (لقد ابتعد عنه مــا يريد ان يقوله) آه
ان صور الناس اقسى عليّ من الجثث والقبور
لقد اصبحت في خوف من حركة الناس ،
خوف عليهم ، من الطرقات والنخل والترع .
الام : (في حزن معروف) نعم ، يا اخي ، لقد اصبحت اخاف منهم
ومن الجدران .
الحفار : انت تعرفين ان ابنك ذاهب الى البقال ،
في الغرفة الضيقة وراء المحل ،
يشرب الحشيش في الحلقة ..
الام : ان القبر قد اكل دنياي واحاط محيطي بالشواهد ،
وانا لا اذكر من ابني الا التراب في ذراع ابيه ..
الحفار : عظم الله اجرك ..
الام : نعم يا اخي ،ان اجري في زوجي كبيــر
الحفار : لقد قصدت ابنــك..
الام : لقد ادركني الموت على حواف حياتــي

كاعشاب الترع الحادة ،
فالسحالى السريعة تبرق في العشب بين الموت والحياة ،
جفاف ، وحدة وبريق الماء (مادة من نفسها في عيون الكثير
من النـاس .
الحفار : لقد حدث لك حادث غريب (حزينا)
الام : الغريب (مستقلة بنفسها) انني استطيع ان اقوم وان اعود
وان اسير بين المقابر حتى الترعة والجدران .
الحفار : لا ، لن تقومي ،حتى اقول لك ما اريد .
لقد قدمت وفي يدي ان احفر في نفسك شيئـا
ولكني لا استطيع ان اسير على هذه الغرابة ،
بين حدود الموت والحياة .
ان ما حدث لي هو ما اريد ان اقوله ،
ولكني احس الماضي يملأ ما اقول وضوحا وجمودا ،
وسحاليك تنسحب مسرعة في مسالك عيونك
الام : لقد استطعت ان ادرك طبيعة الارض
وان ادرك ما بين التراب والماء من فارق ،
لقد استطعت ان اشتري ارضا من التراب والماء
وان اقيم فيها بمفردي بلا جدران .
الحفار : لو استطعت ان اقيم لك بيتـا
او ان احميك بمـا اعرف ،
لو استطعت ان اصنع لك طعام الحق
وان اعجن لك خبزا كخدود البنات .
ولكني لا أكاد اقـول ،
فلا استطيع ان احمل نفسي عليك
والمرء ان مر في الحياة بالطرقات الغريبة
لا يكـاد ان يقدر على الحديث
امام الحدث الجامد والدموع في العيـون
وان الفخر والتعالى ، والقص والعظة
ابعاد من الفاجعـة ،
بعيدة عنهـا ...
نعم بعيدة عنهـا ...
(يدخل الفلاح بلا بقر)
(الى الفـلاح)
الى ايـن ؟
الفلاح : الى البقـال ..
الام : ابني هناك ، قل له انني لـم أعـد
الحفار : لا ، اسمع (مصرا)
لن تذهب ،اسمع انت لك اذن
وانت بسيط من الناس
قادر ان تنصـح
هل تعرف كيف تلقى النـاس
وكيف تسمع عنهـم ،
الفلاح : هيا ..! (مستغربا مصيحا)
الحفار : في كل نفس ترعة ، وعند اخر الترعة ، بركـة ،
قد يغطيهـا الناموس ، او يشتد فيها النخل والشمس
وعلى البركة عيون كالسحالى لا تعرف الماء
او كالسمك لا تعرف غيره .
الفلاح : نعم ، هذا صحيح فانا احيانا احب ان اصطاد السمك
الام : لا ، ليس السمك ...
الحفار : اختي ،.... (مدركا)
الام : ان لوعتي اطول من الترعة واكبر من البركـة
وليس فيهـا ناموس ، وليس فيهـا سمك
ولكنها الزرقة ، لقـد اكلت قلبي وعيوني ،
بين السماء والمـاء
مـا أشـد الاشياء والعناصر ،
اذا ابتعدت عنـك (للحفار)
الحفار : (اخيرا)
في يوم من الايـام ،
بعد ان دفنت ابي ، والشيخة وابن العمدة ،
في ذلك اليوم الذي جاء فيه المديـر
كنت هنا ارقب مـا في داخل القبر
واتذكر في نفسي ما رأيت من عيون مغمضة ،
واقول لك الحق ، يا اختي (متجها للفلاح)
لقد احسست في روحي تجمد الفقرات في الاصابع
واغماضة الجفن المريرة ، بلا عند ولا قصد ،
وقلت لنفسي ، ما اغرب مالي من حركة
وحركت اهدابي سريعـا ولكن عيني لم تفتح ،
ورفعت ذراعي (يمثل ذلك) وخطوت بقدمي
ولكني لم اخط ولم اضرب في الهواء شيئا ،
واحسست اني احمل دولاب امي الكبير ،
وانني انزل الى قبر امي الواسع
اخطو على عظم وقماش واتحسس بيدي رطوبة الجدران
وعندمـا وصلت حيث وضعت ابـي ،
وضعت الدولاب الكبير وفتحته
واطلت منه امي العجوز ، بعيونهـا البيضاء
ورأيت فيهـا فروعا من دم احمر .
وقال لي ابي ، يا بني لا تك عصيا ..
انت تعرف مـا في القبر
وما زلت ضالا بلا انف على الارض .
فقلت له ، يا ابـي ..
الفلاح : (مقاطعا) أكان ميتا (في بلاهة) ؟! ..
الحفار : (مكملا) كل ما قلت (للام)
(صمـت)
ولما تحركت امي في الدولاب قال لي ابي
« اختر لك يدا ، وامرق بها وسط الناس ،
تحت المطر والشمس ، وامسح العرق عن جبينك ،
واحفظ فيهـا اللبـن
واندفع انت وهي ، لا تخش الجدران ،
ان عيون الناس طرقات
وليس بين الموت والحيـاة
غير شجرة خضراء ،
لها شوك يدمي القلوب والايدي
ولها زهر على الشفاه والاثداء ،
الفلاح : (مدعيا) في المحل ، من هذا الشجر
الام : في الغرفـة الضيقـة ؟..
الحفار : لا ، لقد عين ابي مكانه ،
(يعـود طفـلا) ،
سبعـة بحور عراض ، كل منهـا يخاض بطرف ،
بحر للعيـن ، وبحر للايـدي
وبحر تخوضه بانفك ، وبحر تجرعه حتى يجف ..
الام : وبحر للعرق والشوك في الاقـدام ..
الفلاح : وبقيـة الابحـر ؟..
الحفار : وعندما نعبر الابحر نجد طريقا اخضر ،
قد زرع بالالوان والراحـة ،

ولكننا نقف ،
حتى تسقط الشمس علينا يدا ،
وقال لي ابـي ،
ليس في الحياة غير ان تنتظـر ،
ليس لك ان ترجو غير ان تنفجر نفسك ،
فاذا احسست بالمياه تسيل في داخلك
واحسست ان الحجر قد رق
وان النار في الهواء عمود ثابت
فليس لك ان تنتظر ،
لان اليد والشمس والشجرة الخضراء ...

الام : (صارخـة)
يا ربي ، اما زال في الحياة حياة ..
(تفر هاربة ناحية القرية)

الحفار : (تضيء عيونه)
ما اصدق ابـي ...
(بالفلاح مسكنا من دهشته)
خل عنك ، اذاهب انـت

الفلاح : لا ... (مدهوشا)

الحفار : احقـا ،
عليك السـلام (ويخرج موغلا في المقبرة)

الفلاح : (لنفسه)
لا .. لا ..
ليس هـذا حشيشـا

ستـــار

* * *

الفصل الثانـي

جانب من ساقية قـد القى عمودهـا على الارض بلا بقر وقطعة واسعـة خالية من ارض متربة الى جانبهـا وخلاء واسـع بعد ذلك فيه ظـلال من خضرة تظهـر عن بعـد وبعض ارتفـاع وانخفاض في الارض المحيطة تظهر خلالها قطـع متزايدة مـن الخضرة ، الابن الشاب في نفس الملابس وقد تلفع بشال وفتاة وجرة على الارض ومـا زال الوقت صباحا باكـرا في النسيـم وضوء الشمس . الفتاة تلبس جلبابا مشجرا بلون اسود واحمر وتعبث في يدهـا بحواليه وعلى راسهـا وكتفيهـا غطاء للـراس اسود خفيف ، في الفتاة سمرة وحمرة كماء الفيضان وامتلاء معتدل في الجسد وطول فارغ . ولها من تحت غطاء الـراس ضفائر سوداء في اخرهـا شرائط حمر . في يدهـا سوار فضي وفي رجليهـا خلخال سميك .. الجرة على الارض مبللة الجوانب فيهـا ثقل الماء وميل الامتلاء .

الفتاة : نعم قـد آن ان اعـود .

الابن : ما زلت لا ادرك لمـاذا نبتعد عن القرية ،
ايـن صاحبتـك ؟
لقد حان الوقت كي اجد لنفسي مكانا
بين الموت والحيـاة
فـي القريـة .

الفتاة : لقد امتدت علينا الشمس
والماء في الجرة ساكـن ،
لنا زير كبير في الركـن
وقد فرغ الماء على وضوء ابـي ،
ان يده المرتعشة تعبث في الطشت
وامي العمياء تتحسس قدميـه
قد آن ان املأ الزيـر
فقـد كادت قطراتـه ان تجف ،

الابن : انا لا احبهذا الركن من بيتكـم
انه يقطر امك واباك ونباح كلبكم
انا لا احب الا خوار بقري
وحركة الارانب فوق فرننـا
وانا اكره هذا الزير ان تخيلته بين ثدييـك
يقطر غربة ومناعـة
وكاني اراك عن بعد ، على جبـل .

الفتـاة : ولكنني لست بعيدة ،
لقد غسلت قدمي ووضعت على راسي منديلي
واحسست خطوي اليك يهتز في بطنـي ،
لقد جئت الترعة كـي اراك ،
لقد خرجت من الحائط ومن ظهر ابـي
كـي اراك ،
كي اراك ،بلا اسمٍ ولا حائط
كي اراك كما انا ، ليس لي غير قوام وخطو ، نعم ، ليس لي غيـر قوام وخطـو .
قد جئتك بلا قصد او وعي كفراشات الصباح
قد ملات جوانبي ريح طيبـة
وانبسطت روحي على عطر كاوراق الزهور .
جئتك ..
ملء جسدي فخامة ، وفي اعضائي رخاوة الرضا والطبيعة .

الابن : (مقاطعـا)
ليس لي ان ابسط عليك ذراعي ،

الفتاة : احسه عليّ كقنوات الحقول .
وشعري يضيء في الرعاية كالقطن الجميل

الابن : لا .. اسكتـي ،
لا تبعدي الاشياء عمـا هي عليه ،
ان الحق والواقع يسقط من خيالـي ،
كجنـاح مكسـور .
انا ما زلت اجهد ان اصعد هذا الطريق
وما زلت على جهدك جرنا مغلوقا ،
قديمـا .
لقد قلت للحصول في نفسي ان يسعى
كالحيات على حجـر
وقلت للتخلص والتفرد وانانيتي ،
امسكوا عليّ جسدي وادفعـوا يدي وعيوني اليك .
ولكنني ما زلت اخشى ،
وادفيء نفسي بلا خبز ، كفـرن .

الفتاة : اتعرف ،
انا ما القمت الفرن رغيفا
الا واحسست نفسك على عنقي وفي شفتي

الابن : قلت لا تبعدي الاشياء عمـا هي عليه
انا لا احب ان احصل في عمق النفوس
او ان اخوض في المياه الآسنة
لقد قلت للبقال ان يثقل لي الحشيش ،
انا لا احب ، ان اشرب ، كي احلم ،

بل احب ان اصرع الجسد وان انتقم من خيالي ،
احب ان اميت الحلم وان ابيد العارض من المشاعر
اريد لو اقطع اليد ان تمتد الى شيء على ظلمه
وان امسح بالدم عينا ترسم في الجفون صورا
لقد اكتفيت من اصعادي على السلم
الى سطح البيت مع النجوم والسماء ،
لقد اكتفيت من حيرة الحلم
واشتاقت نفسي ان امسك الحجر ،
محمرا كالياقوت ، معذبا كالعيون الباكية ،
لقد اشتقت ان امسك وان اقبض ،
وان اخلق بمفردي الفصول وادوار المياه .

الفتاة : اتعرف انني حيرى ،
كلما جئت كالمياه المتسحبة
ارتفعت نفسك عني ،
واحسست انني آسن
وانني اركد بمفردي ،
فتغمض مشاعري واسأل نفسي ،
« لقد جئت حقا اليه »
لقد تعودت في طفولتي ان اجري وراء الطيور
وتعودت ان اخوض بساقي برعتنا ،
وتعودت ان اضرب الوز بالحصى ،
وان امسك الارانب من آذانها ،
ولم يكن بيني وبينها طريق ،
ولم اكن احلم او اتمنى ،
او احمل نفسي على معنى او شعور ،
ولما كبرت ونما جسدي في بيتنا
كالشجرة الغريبة ،
حسبت انني اكبر في حلمي ،
وانني اكبر كلما استطعت ان اقصد ،
كلما استطعت ان اعطي ،وانا احس عطائي ،
ولكنني استشعر كلما جاورتك ،
تحور القصد ، وضياع العطاء ،
وارى نفسي كالنخل المنسي ، بلا لقاح ،

الابن : اتحسبين انني لا اريدك ،

الفتاة : انا لا اعرف ماذا تريد ،
ولكنني اعرف انني انفعل لك
من بعيد ،
كصفحة السماء بعد الشمس .

الابن : انا لا احب الغروب ،

الفتاة : ولكنك تؤم البقال ،
وتجري وراء امك .
ولا تستطيع ان تغرقني في الجرة
وان تراني استحم ، لك .

الابن : لقد ارتفعت الشمس

الفتاة : اتريد ان تهرب مني ؟

الابن : اين صاحبتك ،
ما اطيبها !

الفتاة : انا احسها في مرضها الشنيع
ادرك لي ، واقرب مني ،

الابن : انا لا استطيع ان ادرك كيف تسير ،
بانفها المتآكل وشفتها المقطوعة ،
ان الكلام يقع من فمها
كاسنان متساقطة ،

الفتاة : ولكنها تنظر لي من عيون
كابار الشيخ ،
يتناوح فيها النخيل والصمت ،
هي تقطر من عيونها فهما
وكانها تصنع ما في نفسي ،
اتفهمني ،....
هي ، هي وحدها ،
آخر الارض ، وحدود الحقل
وقدرتي على الحياة والبقاء ،
والسلوك اليك .

الابن : انا لا احب الحدود والاطراف،
ولا افهم ان نلتقي بين بين ،
انا لا اعرف كيف تحتملين الزهرى
ولا اعرف ايضا ،
كيف اصل اليك ، بدونه .

الفتاة : اتعرف ما يعذبني ؟!..
لا .. اسمع ،
جاءتني ذات نهار وجلست عند قدمي ،
وقالت لي
« لو امشط شعرك ، او اغسل قدميك »
كان صوتها الضارع في عينيها
يتخلل شعري وساقي
ولقد جبنت ان اقول لها نعم ،
ولكنها قالت لي :
لا ، يجب الا المسك
ان يدي ونفسي اقبح من ان يمساك
ان لك يدا ، وان لك نفسا في رجل .
واحسست انني اتكاثف كشجر الجميز ،
وارتخى غصونا وثمرا .
لقد كللت نفسي بامكاني ،
وملات روحي حديقة وزهرا ،
ولكنني كلما ظللت في روحي ،
رايت زهري يرتوي من لعابها
وادركت ان حديقتي امكان ،
وقدرتها على الخلق واقع .

الابن : لقد اكتفيت من واقعي ومن امكانك ،
لم يعد في نفس الحشيش مد ،
لقد انطفات الجمرات ،
كعين شريرة
ولا استطيع ان اشرب معك الحشيش ،
او ان اخلص فيك من امي ،
اقول لك ،
فالواقع ان المسالة بسيطة :

الفتاة : (مقاطعة)
البسيط انك تريدني زوجة ،
انك تود ان تستطيع ،
لو تغلق عليّ الجدران والظلمة ،
تود ان تخلص من جهدي لك ،
تحب لو تراك امك زوجا

لو تراك اباك .
ولكني اريد ...
الابن : (مقاطعا)

انا اريد ان افرغ من شبابي
ومن بطلان حياتي ،
وانا احس الحب
كحزن امسي
حماقة ؟
لقد مات ابي ،
فلماذا لا تنجبين لي طفلا ؟ ..

الفتاة : اتعرف ؟ لقد نفذت صاحبتي الي هذا
واضاءت بطني وملأت اثدائي لبنا
ورأيتها تلاعب الطفل
بشفاهها المتآكلة وعيونها الضارعة ،
انها تملأ نفسي احلاما
فاجيئك مثقلة كحما السبخ (وتضحك)

الابن : (يقترب منها في عنف)
لقد مللت كل هذا
اعطيني قبلة
اريد لو اعصر مللي ومرارتي
وان اختم حديثنا بالقبلة الحرام
انا احس عبوري لنفسي في الحرام وحده .
املأ فيه تشنجي وغموض اغراضي وفشلي ،
وحيرة عيوني ويدي ،
وفراغ هذا الجسد والروح المنخويه
(يتناولها في يديه ويقبلها على شفتيها ويداه على جسدها)

الفتاة : (في شفتيه)
ما اشد حيرتي معك ..
الابن : (مبتعدا عنها)

دعيني افكر
الفتاة : الن تعود للقرية ؟
الابن : لا ...
انا ادفن هنا شيئا واحس انه سيخرج .

(تقبل الفتاة الشوهاء عليهما

وتقف امامهما تنظر ولا تتكلم)

اكنت ترقبيننا ؟
الشوهاء : (تشير براسها ان لا)
الابن : اكنت تنتظرين ؟
الشوهاء : (تشير براسها ان نعم)
الابن : واين كنت ؟
الشوهاء : (تشيرالىمنخفض وراءهما يصعدمنه تراب عدو ونهيقحمار)
وتشير الشوهاء الى جرة الفتاة لتساعدها على حملها ولكنالفتاة
تحملها وحدها وتنظر الى الابن)

الفتاة : الن تعود للقرية ؟
الابن : لا ..
الشوهاء : (من شفتيها) الخير ان تعود
الابن : الخير ان (مكررا وراءها ساهما)
ولكنني لن اعوذ (هامسا لنفسه)

وتسير الفتاة ووراءها الشوهاء ويعطينا الابن ظهره
ناظرا اليهما ورافعا في يده خشبة الساقية)

ستـــار

* * *

الفصل الثالث

بعد سنة

قاعة كبيرة نصف مظلمة في طرفها من اليمين فرن وفيجانبه باب مفتوح على حوش وزريبة . والام تجلس امام باب الحوش الى جانب الفرن والى جانبها جوال كبير فيه قمح ومكيال وفي يدها منخل وفي الوسط فتحة الى سلم ظهر فيها السلم وبعض طاقات للحمام على جدار السلم ، ووراء المرأة ابواب ثلاثة مغلقة ، ودخول الاشخاص وخروجهم من الامام من باب كبير لا يظهر منه الطريق والام والابن الى جانب الفرن في آخر المسرح بعيدين بالنسبة للقاعة الواسعة ، فيها حمام وارانب ووز .

الابن يتحرك الى جانب الام منفعلا وكان الحديث بينهما قد طال .

الام : نعم ،
نعم قد خطوت هذه الخطوات
وفعلت ذلك ،
اما تعرف مسئوليتي ؟ (تنخل)
الابن : انا لا اجيد فهم الاحاجي ،
ولكني انفجر كالثور الهائج
بلا رحمة ولا عقل ،
انفجر ، واندفع وافتك بك .
الام : ان القمح لا ينتهي ،
وهذا الحصى كثير
الن تخرج ؟
الابن : انا على وشك كل شيء ،
قد اعددت الادوات لكل شيء
لقد لبست جلبابي ، وطرف محراثي مسنون
ولي نار في الحجر
ولكني لن اتزوج ولن ازرع
لا .. ولن اخرج ..
وهل استطيع ان اتخطى العتبة ..
الام : كم احس انك كبير ،
وانك في غنى عني
وانك وحدك ظل وحساب
ما اقربك الى وحدتي واحساسي بنفسي ،
انا لا اذكرك الا كلما خطوت بمفردي ،
وحدي بعيدا عن الناس والعمل ،
بعيدا عن العيون ،
في ظلمة العمل العابر وفي اخر النهار ،
في المصباح في الكوة ، في غلقة الباب ،
وانا اسحب الغطاء على جسدي ،
في آخر كل شيء انت ،
عندما اقوم ، بعد جلسة طويلة ،
عندما تنفض من حولي النساء ،
عندما اسمع شخيره الى جانبي ..
الابن : نعم ، بعد ان ياكل زوجك وينام ،
لقد اصبحت انا بقية ،
كروث البهائم وذرب الحمام ،

امسح واجمع واذكر
في آخر كل شيء ،
له الحمام والثور وطعام الصباح ،
ولي اواخر الليل والذكرى وتانيب الضمير ،
والعشاء البارد في غرفتي ..

الام : (مؤمنة براسها)
انظر ، كم انا مخلصة ..
الابن : الا يسود هذا الضوء ،
لقد ارتد عليك شبابك
واصبح لك غنج وحديث دافىء من الشفاه .
الام : انا اخجل منك (في تصابي معترف)
الابن : وتخجلين مني (مستمرا مكررا)
وتنفضين على شعورك
كانتفاضة الوز بعد الماء .
لقد جفت بنوتي على جناحيك
وثقلت اقدامي بالحديد
لا ، لا استطيع ان اخرج ..
ان اتخطى العتبة ...
لقد خرج هو ، وما زال في البيت نفسه .
ان تجشاه الكريه يكتم صدري ويخنقني ،
لقد خرج هو ، وتركني مسجونا في رائحته .

(يخطو ويعود ناحية الباب)

الام : اتعرف انك تؤلمني ،
لقد سالتك ، ورايتك تدفعني ،
اتذكر ، لقد قلت لي « يا امي ،
بعد حين ساتزوج ، وانت ما زلت صغيرة ،
وقد يساعدني في الحقل ، وله مال وارض ،
وهو قريبنا ،
لقد قلت لي ذلك ، وجئتني حانيا عاطفا ،
يا امي ان حزنك يقتل روحي،
وزواجك يرجعنا كما كنا ، سعداء مشغولين .
الم تقل ذلك ..
الابن : كنت احمق ، مخدوعا عن نفسي ، مشغولا باحلامي ،
وكنت خرقاء مجنونة
قد نصبت لي دوامة ..
(مفكرا) .... وقد نصحني الرجال ان اقبل .
الام : لا ، لم يكونوا الرجال ،
كنت تريد ان تخلص مني ،
ان تبيعني بحزني لرجل آخر ،
كنت بقرة مريضة فبعتني للجزار ،
لا لم يكونوا الرجال ...
انا اعرف هذه البنت ، واعرف خوفك من المسئولية ،
ولم تكن تقدر ان تتزوج فزوجتني انا ،
ومع ذلك (معترفة) فانا اعرف انني قد اخطات .
الابن : (متهكما) ما اجمل شعورك لي ..

الام : اخطات ... (وتضع المنخل)
اخطات خطا الخطوة ،
اخطات خطا العين ،
اخطات خطا اليد والنفس ...

(يخرج مسرعا وكانما يخلص من اسر)
(وتظل تنخل وهي تبكي وتندب)

يا ربي ليس فيما يرد ما فعلت ،
ايارب ، ما كان ، ليس لي فيه يد ،
يا ربي انت ادرى بالخطوات ،
وانت ادرى بهذا الجسد .
لقد نال ما نال ، وما حصل لنفسه على شيء .
يا ربي ...

(تدخل الجارة ١)

الجارة١ : آه اتبكين اذن ،
انا ما زلت احسبك عروسا ،
قد رق لها الوجود ، واستراحت لها الطرقات ،
انك ما زلت عروسا ،
لك نضارة الاقدام والدخول ،
واحساس الطير بالعودة
لم تبكين ،
قد جعلتني اذكر العذارى وعيدان القطن الجاف .

الام : اجلسي ،
ان دخولك عليّ كحدة الشمس على الماء الآسن ،
انا ما زال يلعب في روحي قلق كصفار الضفادع ،
فاذا ما انفردت بنفسي ،
رأيت التماسيح وغيلان الماء ،
آانا عروس ،
عروس بلا راس ولا ذنب ،
حزينة كدمى الطين ،
بلا وجه ولا تعبير ،
قد كومتني الاطفال ولي على كل جانب يد
وموضع لاصبع .
انا مجروحة مجعدة ،
ولكني عروس .
عروس ...
الجارة١ : ولكنه رجل طيب قوي رحيم ،
قد تناولك بيد كريمة ،
اما تسمعين صراخي كل ليلة ،
ان رجلي يضربني ،
وما اغرب ان اقول لك ،
اريد لو احس هنائي عندك .
الام : عيوني عليك باردة (في يأس)
حقا انك جارة .
يجاورني بيتك ووجودك ،
ويظل بيننا حائط ،
اسمع صراخك في الليل ، فتنفجر في ذهني شرارات من نار
واخلط بين الجنة والنار ، ولا اميز بينهما صراطا
وانت ، تدخلين عليّ وانا ابكي ،
فتقعين عليّ كما تقعين على بئر
وتسالينني وكانني ظلك ،
ولكني يا اختي ابكي ، ابكي بمفردي
ليس لي معنى ، وليس لي جواب ،
قد دفعت الى حدود الجسد بلا جسد ،
ومزجت بين ابني وزوجي ،
وخطوت على الحزن والقبر الى فراش جاف ،
بلا ثدي ولا لبن ،
قد صوّح فيه النخل وتقصفت فيه العيدان ،

انا ادعى وحدي العيون في النار ،
واليد الملوثة بالدموع ،
انظري كفي وصدري وعيوني .
هذا ابني قد نسيت عناء جسدي فيه ،
ولكني اجفل كلما ادركت انه لحمي ،
وروحي واعماق نفسي وتراكم السنين في صدري
قد طواها القبر وهذا الزوج الراحل ،
وما زلت كما زال الناس ، حية يرعاني رجل ،
ويتشمم جسدي كما تتشمم الاعشاب الخراف .
لقد توترت حياتي فلا اكاد احس لها نبضا
وتكدست مشاعري فلا اميز فيها نورا ولا قناة ،

الجارة : اسمعي ، لقد عرفت مع زوجي شيئا جليلا ،
كان يضربني ويملكني وتترامى حولنا الاطفال .
ولكني احس ارتكازي وراحة السر في زوجي ،
لقد مد لي زوجي قناة فالقيت بنفسي فيها ،
واطمأنت حياتي للجسور
لقد تعلمت الا اعلو على نفسي
وعرفت ان صلتي بزوجي وجدران بيتي ،
هي الاصل في شعوري والقدم والزمان في وجودي ،
ان بهجة الروح ان تجد لنفسها علة ،
واثبت ما في الوجود من علة ،
هو صدر الزوج وفم الطفل ،
نحن يا اختي كالنحل وكالنمل ،
لنا حياة ولنا دور ،
وليس لحياتنا موت ، لان لنا دورا ،
وليس لدورنا حياة لاننا نقف بارجلنا
في الموت
نحن ،
نحن يا اختي نساء
اذا رفعنا رؤوسنا ، اكلنا الرجال بلا رعاية ،
واذا استقلت نفوسنا اصبحت اجسادنا غريبة ،
كالاراضي البور ،
ملؤها الاعشاب والشوك والصقور ،
وماذا نكسب نحن النساء ان خسرنا هذا الجسد ،
ادفعي صدرك لطفلك
واقبلي على الرجل ،
تنفر الزهور في روحك كجنة تسر الناظرين .. (وتضحك)
(وتضيف جادة)
ان هذا شيء جليل .

(يدخل الحفار طيبا قويا رحيما فتحتجب الجارة ويمرق الرجل الى السلم الى اعلى ، بعد ان يقول)

الحفار : السلام عليكم

(فتتمتم المرأتان الرد دون ان يسمع ويصعد فتتقدم الجارة من جديد دون أن ترفع حجابها وتكوم الام بعض القمح في الغربال)

الام : اقول لك الحق يا اختي ،
انا احس انه سلام ،
وان احترامي له كالخوف
يبعث في نفسي جدا وجهدا ونشاطا ،
اما ما ياكل روحي فتكثر الرجال فيها
فلكل فهم حضور ، ولكل فهم ساحة ،
ولكل فهم في روحي قاعة
لها مصباح ولها باب .

الجارة : ان من يتكثر هو نحن النساء
اما هم ، فهم هم دائما ، لا يتكثرون .
نحن اللحم والدم ورغبات نفوسهم ،
اما هم فكل نفوسنا وحدود قوانا ،
ان كلا منهم ينهب من نفوسنا قطعة
ولن نسترد ما نملك حتى نراها
في يد كل منهم ، ملكه ،
اتعرفين ، كلما كبر اطفالي وابتعدوا عني
احسست انني ارتفع كما ترتفع الشمس عليهم
وكلما ضربني الرجل وسبني
احسست انني احيطه كسوار الحقل .
نحن نتكثر ونتشكل ونتعدد
اما هم ، فهم هم دائما كاصابع ايدينا .

الام : ان حديثك (في انوثة فائضة)
ينسرب على جسدي كالعرق ودم القمر .
واحس انني كالدنيا لي حدود في وجودي
وليس لحق الناس فيّ حدود .

الجارة : (تضحك فاهمة)
قد آن الان ان اقوم ،
وان اسري كالمياه ،
اعد الطعام واحمله لزوجي ،

(تقبلها وتخرج في بطء وهي تنظر اليها وتنشغل الام في نخل القمح في سرور مدة ، ثم تقول لنفسها)

الام : يا ظل انفاسي في الرجل ،
يا ملء احساسي بالرجل ،

(وتكيل القمح وتضعه في المنخل وتنخل)

ستار

* * *

الفصل الرابع

قاعة مظلمة منخفضة وراء محل البقال لها نافذة صغيرة عليها قضبان حديد يظهر وراءها ميزان كبير . والقاعة مضاءة بمصباح بترولي كبير والرجال جلوس على الارض وفي يد البقال جوزة كبيرة يمررها عليهم ، والجو مليء بالدخان وبعض الاذرع او الارجل عارية من راحة الجلسة وفي الغرفة اكثر من شخصيات الفصل ، رجال صامتون لا يتكلمون .. على الارض بندقية الى جانب السفاك الاشعث ومرتبة مفروشة وراء البقال ودولاب قديم مغلق وراء الرجال .

البقال : (للابن في جانبه)
لقد قلت للرجل ان يأتي ، ولم احدثه
فعليك ان تفاتحه انت
ودع لي امر المال .

الابن : افاتحه ؟

البقال : نعم ، قل له ، انه رجل بسيط ،
قد اعتاد ان يغمض عيونه وفمه ،
فنما الشعر في صدره واصبحت يده حرة كسكين .

الابن : لقد تعودت ان اراه،ولقد سمعت طلقاته ،
وانا اعرفه (يشتجر الحوار ويتحرر المستمع)
ولا اخشاه لنفسي
وافزع منه في يـدي
رجل١ : اتعرف حقول المصرف
اغلت طيبـا هـذا العام ،
رجل٢ : لقد خدموها جيدا ،
انقل لي الجوزة (ياخذهـا من البقال وينقلها له)
رجل٣ : نحـن في حاجة الى نار وشيء في معدتنا

(يتحرك البقـال)

البقال : (لرجل ٣) اصفق بيديك .
(للابن) ولكنك اردت والحجت
وانا اخشى عليك الفـل ،
ان المراة والانتقـــام ،
اضر شيء على الجســد
رجل١ : لا يضر ولا ينفع الا الله ، اذكروا الله
السفاك : (بصوت عال وكلهم وراءه) لا اله الا الله .

(تدخل فتاة تحمل طعامـا فيتناوله احدهم وتخرج
الصغيرة تتعثـر)

الابن : (للبقال) ان عزمي نفد من حلقي ،
اليس افضل ان اقرأ الفاتحـة ،
انا خائف على نفسي لا استطيع ان اعبر ما فعلت ،
رجل٢ : اتعرفون ان البحار سرق خشبا للمهندس ،
من الجسر المهدود .
الابن : وان تخرج قواي مع الرصاصة فلا ترد ،
وانا اعرف الحرام ، فلقد خبرت نفسي فيه ،
رجل٢ : (لرجل ٣) يا سيدي ، ان الحرام يملأ البلد ،
الابن : انـه ياكل في جلدي كجرب
فاذا حككته اشتعـل ومرضت ،
انا اريد فقط ان ارى نفسي
وان استطيـع ان افعــل
رجل١ : لقد ضربت رأسي حيلـة ،
ولقد آن الاوان ان نعمـل ،
حقا ان فيها شيئا من الحشيش
ولكنا سنجعل المهندس يشربهـا
الابن : فلاكن اكثر اخلاصا لنفسي
واحكـي لـك ،
انت اكبر مني سنا واكثر فهمـا ،
ولكني سأحكي لك عـن روحـي
ثم انصحني او امرنـي .
البقال : (يصمت ويسمع بتؤده)
رجل٢ : (لرجل ١) وما هي الحيلة ، قل لي .
رجل١ : ان المهندس يصنع من الخشب فراشا ،
الابـن : لقد رأيت امي بعد وفاة ابي كالمجنونة ،
لا يضمهـا فراش ،
رجل١ : (لرجل ٢) فالقول ان نذهب الى البحار ،
فنزوجـه ،
الابن : واحسست انها تربطنـي ،
فلا استطيع ان اتـزوج
رجل١ : وقد عرفت ان البحار يحب ..
الابن : (للبقال) اتسمعنـي

البقال : (يهز رأسـه)
رجل٢ : (مقاطعا) نعم اعرفهـا
الابـن : وكنت احب هـذه الفتـاة ،
البقال : نعم اعرفهـا ..
الابـن : كم اتعثر في حديثي ، كمـا اتعثر في حياتي
البقال : انا احس كأن هذا آخر حديثك .
رجل٢ : اهذه كـل الحيلـة
الابـن : لا ... اسمعنـي

انت لا تستطيع ان تقبر احـدا ،
حتى تشرف من عل على كل القريـة ،
وما يشرف على القرية الا شيخنـا ،
وقد مـات
اما انا فاريد ان احيا وان اصنع بيتـا
وان اسلك ((كما اريد)) في طرقاتنا
خفيفـا ،
ان مقتله سيفصلنـي ، انا وامي ،
وانا اخشى هذه المرآة ،
ليس فـي المرآة طرقـات ،
وليس في الحياة الا بعد الوجه واختفاؤه
نعم انا اعرف هـذا ،
لقد عرفت آخـر الامر
ان شقوتـي في جسدي .
كلمـا احسست بنفسي ضاق ،
وكلمـا احسست بيدي تشنجت ،
وكلمـا احسست بقلبـي عجزت ان اتـزوج .
ان هذا السفاك نور اضاء حريتي .
وليس عليّ الا ان اتجنبـه ،
افاتحه ، لا ،
لقد فتح لي بابا من النسيـان وضيعـة الظل
بابا لا يخطو فيه المرء ولا يريـد ،
بل يتحرك لان الاشياء في اماكنهـا ،
اتعرف يا عمي حـلاوة السكـون
في الاشيـاء ،
امي في الغرفـة مـــع زوجهـا ،
وامراتـي مـع الصنـدوق

تنتظر ان احملها .

وانا هنا مع السفاك ،
لا .... لن افاتحـه ،
ولن اعـود اليـــك .
البقال : انـا لا استطيع ان ازيد القول والفعل
ولا استطيع ان ادلك على حياتـك
لقد جلبت لك السفاك
ووفرت لـك الحشيش
فافعل او قـل .
ان امور الحياة يا بنـي
اخفى من السمك فـي الترع ،
وكل من صبره آكـل ،
اما انا او انــت
فلن نستطيع ان نضع شيئـا مكانـه
كل شـيء في مكانـه
حتى تصل اليـه ،

وكل شيء غائب ضائع ،
ما دمنا في الطريق
نسال الناس ونعتلي الركائب
يا بني ، اذا قلت لك اشرب
عليك أن ترفض النصيحة ،
وان تعبر جثتي الثقيلة ،
انا هو الناس وكلام الناس
وانت ، انت هو الحق
والحياة
وانت انت وحدك

انت الطريق .

(الابن يطرق ورجل ۱ يطرق ويشرب)

رجل۱ : لا .. اسمع ،
هذا البحار يعرف المياه جيدا ،
وقد اعتاد جفاف ريقه وهو يغرق
ارضنا بالمياه .
فلندفع له ببعض الماء ،
ولنسرق له الخشب ،
ان هذا الجسر يصلح لبيته .
والمفزع ان يعود الحرام للمهندس
دعوه يعود لنا
فلنقبل في الليل في خفة القط ،
لنحمل الخشب ولنبن للرجل بيتا ،
وعندما يتزوج ،
اندعو المهندس
لا ، لن ندعو المهندس ،
فلقد عرفت آخر الامر
ان هؤلاء الاشخاص على المكاتب
يقصدون بنا الشر
ويرسمونه على الخرائط
لقد قصدوا ذلك
والافضل ان ننساهم
حتى نعيد اقراننا وحدة انخفاضها ،
وحتى نلتقي جميعا
في ابارنا ونخيلنا ،
حول بكارة نسائنا ،
لقد حركوا الاشياء من اماكنها
واصابوا ارواحنا بالعطل ،
كالجسر المهدود ،
انا وانت في القرية
والبحار مع زوجته
والخشب على ظهورنا نقول
الا نكلم البحار
الا نذهب اليه

رجل۲ :
لقد قلت ما احسه الحق ،
ولكني لا استطيع ان اتحرك لك ،
انا ان شربت الحشيش ،
اصبح لكل قول حق
واصبحت كل ارضي
مليئة بالقمح والبيوت ،
ولكني ادفع نفسي الى اعلى ،
فلا احس غير يقظة التخيل ،
وهذه الاصابع الغريبة ،
التي تلمس ما اخلق ،
وكأن بعده وتطلعي ،
هما كل ما له من صدق ،
يا اخي ،
ان اردنا ان نهدم المكاتب
فلنشرب الحشيش . فما دمنا في الطريق
فلن تقف لنا حماسة ،
اما ان نصل ،
وان نحمل
فانظر ، ليس لي ظهر ،
وليس لي يد ،
انت ، انت وحدك
انت تحلم ايضا ..

السفاك : (عاليا عليهم جميعا)
اسمعوا ، نعم اسمعوا
الحق اقول لكم لانني هو الحق وآخر ما في الحياة من قطرات ،
لقد نال اليأس من كل نفس، ونفسي كما هي من غير يأس ،
انا آخر ما في النفوس من عزم ،
تتشنج لي النفوس فتنبسط قبضتي ،
قد حصلت على حريتي اذ بعتها للناس ،
انت (للابن) وانت (لرجل ۱)
وانت ، وانت ، وانت
نعم اسمعوا ، كل ما في الحياة من انت ،
اذا انقبضت نفوسكم وتعقدت عليكم الطرقات ،
فانا اعرف من اين كل مكان ،
وانا اعرف حيث تجمد النفوس وتنتهي الكلمات ،
ففي يدي القوس ، وقوس من العيون والرغبات .
وفي يدي عزم ، هو ظلمة اللحظات ،
وتحجر المآقي ، وقسوة الكبت
وسكتة الغيظ ورجفة الروح واجفالة العزم ،
انا هو كل ما فيك ان اسود جسدك بالوعى ،
وارتفعت عليك حياتك ،
اقبلوا ، اقبلوا يا حزانى يا مكلومين
فانا هو العزاء
وراحة الوتر .

(يخرج كل من في الغرفة بعد الابن ويبقى البقال والسفاك وفي وحدتهما يحتضنان)

ستار

مانشستر ١٩٤٨

زياد علي

شاليمار

الى الشاعر الليبي محمد الشلطامي

(١)

حاجز سميك يفصل بينهما ، سميك كسور ياجوج ومأجوج الذي تحكي له امه عنه عندما كان يخاف الستار الاسود ويرفض ان ينام الا في حضنها ، كل منهما يغلف الثاني بنظراته ، امها لا تمانع ... ابنتها في حاجة الى شاب ، لا يهمها التحديد ، ابتسامتها تشجعه على ان يتمادى ، بساطة الحياة تفرض ذلك .

شيء ما كان يبعده عنها . احساسه بانها فتاة سادسةعشرة ، هذه السن حاجز لا يجب ان يصطدم به دائما حظه مع من هن اكبر منه .

ربما لان الطفولة تملأ الكثير من جوانحه ، وربما لانها تعني التقديس او لان صورة ابنته غادة تملأ حجيراته الداخلية .

(٢)

بين يديه « الفقاعة والمثلث » عيناه تسلقان السطور ، احس بعد نهايتها انه يود ان يقول لصاحبها احسنت . (١)

لا زالت تنام بوضعها المقلوب ، رأسها مستقر مع قاعدة الكرسي الشمسي ، وشعرها يكتب على وجه الارض ، ورجلاها تكتبان على وجه السماء ، على عينه نظراتها تنكسر ، فترتد الى الفراش البحري وتقول لها :

— انظري انه غبي ، اود لو يفهم انني في حاجة الى من يسبح معي ...

ترفع امها اليه عينيها فيقول لصديقه لا شيء يرمى للبحر ، ان المرء بحاجة الى فراش بحري كبير في السن حتى يستريح من ضجيج اعماقه . (٢)

رمى عقب السيجارة ، سقطت بجوار الثمن الثالث الذي كان يشربه صديقه .

هناك حاجز يفصل بين ابنتك وبيني ، عينا الام تقولان له « انت غبي » انها لم تخترك ، ولكن كما تعرف ان شاطيء « اميلكار » فقير جدا وان المطر الذي سقط في هذا اليوم الصيفي جعل الجميع يهربون الى اماكن اخرى .

ولكنك وصديقك الوحيدان على الشاطيء وابنتي في حاجة اليك اليوم فقط .

قلت لك لا تنظري الي . انني افهم ما تعنيه كلماتك ولكن لا داعي للتمادي .

اسقط ذراعه اليسرى على عينيه يتقي اغراء الفراش البحري الصغير والتي اصرت على ان تبقي عينيه معلقتين كبرواز على جسدها .

شيء من الظلام احاط به ، كانت تجر عربات يديها على بعض الهضاب وتقف عند قمة كلمنجارو . وكم كان يتمنى لو سقطت في كهف مظلم اشياء اخرى .

شعرها قصير اصفر كسنابل القمح في سهول بارداي ، ها هي ترفع قدميها في الهواء ، ساقان عاليتان . كل شيء ساخن يذكره بتلك الليلة ، كانت هي الاخرى ترفع ساقيها ، وكان الفرق بينهما ان هذا فراش بحري صيفي وذلك فراش يطرد آلام الروماتيزم من الظهر في ليالي الشتاء .

امامه الحاضر ولم يكن بمقدوره ان يصل اليه . فالماضي جسر لعبور الصباح . وفجأة انتقل من الغرب الى الشرق وترك مسقط راسه بينهما .

(٣)

منذ مدة ترك فكرة الذهاب الى كلية حامورابي ، كان مكانه المفضل ذلك المقهى الذي يتوسط قلب المدينة وينظر الى ظهر سليمان باشا باستمرار ، قدمتها له صديقة حاولت ان ترفع الكلفة بينهما بسرعة ، ولم يتحدث معها لدقائق .

كانت جريئة

كان حزينا

كانت تريد ان تقتل الرتابة والصمت ، وكان مقبرة .

— كيف حالك ؟

سؤالها غريب ، عيناه تبحلقان دون ان تحملا معنى !

— تكلم !

— عن ماذا ؟..

— انت سخيف !

— سيقان النساء خلقت لتنتصب كأعمدة لا اكثر ..

— ارفع صوتك لم اسمعك

— كنت احدث شياطيني في الداخل

الصديقة التي قدمتها شعرت بالحرج ، حاولت ان تغير من الجو المشحون ، تمتمت بصوت خافت :

— هل وصلتك رسالة من ليبيا ؟

— لا

— هل ستذهب الى مكان ما ؟

— لا ادري !

ـ ما رايك أن تدعونا الى سهـرة ؟
فتحت الصديقة الاخرى حقيبتهـا ثم علقت على ابتسامتها كلمـات خرجت كأنهـا تقرر بهـا نهاية السؤال السابق :
ـ انا ادعـــوك
جملته خرجت بدون معنى وكأنه لم يجد غيرها :
ـ لم انعود ان تصرف عليَّ امراة !
ـ انت سخيف !
ـ هل هناك اسطوانة اخرى تحفظينهـا ؟
ـ لماذا انت متجهم ؟ لماذا لا تجيب بذوق !
ـ تعودت ذلك مع الذي يعتبر نفسه كل شيء !
ـ أكرر دعوتي ، لو تكرمت فانا اعتبرك ضيفي هذه الليلة .
ـ ولكن يجب ان اذهب الى بيتي اولا .

(٤)

وقف التاكسي امام البيت . ربمـا اعتقدت انه سيدعوها للنزول ولكنه نظر الى السائق وقال له بصوت عال :
ـ انتظرنــي خمس دقائق لو تكرمت !
عندما رجع الى التاكسي كان قد استعد الى سهرة كاملة بمـا تحتاجـه . تقودك هي صديقـك الوحيـد .
هذا ما قاله لنفسه وهو يتحسس جيبه !
وصلوا الى ملهـى شاليمار ..

(٥)

الليل يغطي المدينة ، وجنود يغطون جزءا كبيرا من .. قالت امي لا داعـي للتحدث في السياسة ، المكان هادىء جدا وعدد الرواد قليل، الجرسـون يسـألــه :
ـ ماذا يا بيـه ؟
نفس طلباته تطلبها ،عندما وصل الى الشراب فتحت فمها مشدوهة واعتقدت انها لـم تسمع ما قالـه وسألتـه :
ـ اقلت كوكـا كـولا ؟
ـ نعـم
ـ هل تسمح لـي ان اشرب ؟
ـ ولماذا اسمح ؟ تستطيعين ان تفعلي ما يحلو لك !
نظرت الى الجرسون وقالت بصوت خافت :
ـ انا ايضا مثلـه !
لم يسألها اكثر ، عيناه تبحران مع الصاجات والشمعدان ، النور خافت ، وضعـت رأسهـا على كتفه وتنهدت ..
الراقصة تتلوى كسياستنا العربية ، العالم يتكور في اردافهـا على حسب تعبير شاعرة لا يذكـر اسمها ، العالم يتكور في صدرها، فـي بطنهـا .
المرأة تصلح لرسم خرائط العالم مجسمة .
استأذنت منه ، عندمـا اقتربت من (المتر) قدمت له شيئـا بيدها ، بعدهـا رجعت الى مكانهـا ووضعت رأسهـا وصدرهـا فـي مكانهـا الاول ، عيناها تلتهمـانه عـلى الضوء الخافت والموسيقـى تلتهم اعصابه وصديقتهـا تلتهم طبق « الجمبري » . الموسيقى تعلـو وتعلو ، انفاسهـا تحرق اذنه ، وكلمـاتها تضرب على طبلتها .
ـ استمع الى هذه القطعة ، هديتـي اليـك
لم يفهم من الاغنية اكثر من « تيك ماي هارت » لم يتعود ان ياخذ من النساء قلوبهـن ، كان ياخذ اشياء اخرى .
ـ الليل يهرب ، يهرب لانه مطارد بتهمـة مساعدته على ارتكاب الجريمة . اتجه ثلاثتهـم الى منزلـه .
تركهـا مع صديقتهـا ، ودخل الحجرة الاخرى ، عندما دخلت واستلقت بجانبه قالت لـه بخبث :
ـ لقد نامـت
ـ انا ايضا اريد ان انـام . فهل ستتركينني ؟
ـ اتخاف منـيَ ؟

(٦)

حبيبات العرق تتضاخم على جسده يحس لها بوخز .
لماذا كـل هـذا ؟
ان ليالي الشتاء الباردة هي التي اجـرت عموده الفقــري للروماتيـزم ، وهـو يحس الان بيديهـا تطردانه .
تذكـر صديقه في تلك المدينة الحزينة والــذي يمسك عمود الكهرباء ويطارد الرماتيزم ، هو الاخر في حاجة الى ان يستريـــح ويترك غيره يساعده على هـذه المهمـة القاسية . فجأة صرخ بصوت مشروخ :
ـ لنقف عند هذا الحـد .
ـ لا . لا ، ليس هناك حدود بين دولتينا . لا تقتلني بهـــذه الطريقـة الباردة .
ـ انا لا اريد منك شيئا ، ولقد وضعت لنفسي حـدا يجب ان لا اجتـــازه
ـ ان تصرفاتك تعذبني ، ابحر داخل حدودي . يجب ان نتحد
ـ عندمـا تندفعين وراء لحظات تشقين عمرا ، يجب ان ترفضي هذا ، وتتعلمي السكـوت .
ـ آه .. آه الصمت يعذبنـي ارجوك
ـ حاجز كبير يقف بيننا ، انت تستطيعين ان تساعديني .

(٧)

انهمرت دموعها المالحـة على شفتيه لتزيـد من عطشه ثم غرست رأسه بيـن كتفيهـا .. كان قلبهـا قريبا جدا وكان ينتفض كطيور الجنة فجأة زرعت رعشتها على جبينه وعندمـا وصلت شفتاها الى عينيـه رفعتهمـا قليـلا لتقول لنفسها :
ـ لا انسى انـك اول انسان يرفض عبور الطريق الى جسدي، فدعنـي اعبر الطريق الى قلبـك .

(٨)

« لم اجد السعادة في الوطن ولكني وجدت المباحث ! » (٣)

ليبيـا

---

(١) الفقاعة والمثلث : قصة للكاتب التونسي احمد ممو .
(٢) عندما تضج الاعماق : كتاب للاديب الليبي عبدالله القويـري
(٣) يتصرف عن الشاعر العراقي عبدالوهاب البياتي من ديـوان قصائد حب على بوابات العالم السبع .

تتمة ـ عنصرية دولة اسرائيل

تابع المنشور على الصفحة ـ ٥ ـ

« باستيلكم » ، لا باستيلنا . فعليكم انتم ان تحاربوه» فلماذا اذن نكتب للفرنسيين ؟ الحق ان المسألة ليست فقط مسألتنا . انها ايضا ـ حسيا وليس فقط على الصعيد النظري ـ مسألتكم ومسألة العالم كله . فكما ان سقوط باستيلكم كان نصرا لحرية العالم كله ، فان سقوط باستيلنا كذلك واقامة نظام يهدف ، على الاقل ، الى « الحرية والمساواة والاخوة » ،سيشكلان بالنسبة اليكم ايضا نصرا للحرية . ان الحرية ، كالتمييز ، معدية . كان ابراهام لنكولن على حق بان يقول عام ١٨٦٠ ، ان الامة الاميركية لا تستطيع طويلا ان تبقى نصف ـ حرة ونصف ـ عبدة ، بل لا بد من ان تصبح حرة تماما او عبدة تماما . وما كان صحيحا عن الولايات المتحدة الاميركية عام ١٨٦٠ هو اليوم صحيح عن العالم كله . فاذا كان لا يحق لرجال جميع الاديان وللرجال الذين لا دين لهم ان يسكنوا اليوم حيث يرغبون في القدس، فسيأتي يوم لن يوجد فيه هذا الحق في باريس ايضا . بحيث انهم في باريس ، سوف يسألون الشخص عن معتقداته . قبل ان يسمحوا له بان يسكن في مكان ما . وما ادرانا الا يسقط هذا التمييز مرة اخرى، بأبشع صورة واقساها ، على رؤوس اليهود انفسهم ؟ اتصلح « الدولة اليهودية » مقدمة لعودة اليهود الى وضع التمييز الذي كانوا فيه في « العهد القديم » وهل سيخضعون غدا في اوروبا لمثل ما يخضعون له اليوم الفلسطينيين في اسرائيل وفي الاراضي المحتلة ؟ في هذه الحالة ايضا ، يبقى صحيحا المبدأ القديم الذي يقول « ان الشعب الذي يضطهد شعبا آخر ، لا يمكن ان يكون شعبا حرا » . واذن ، اذا شئتم ان تحتفظوا طويلا بقدر ما من التحررية والحرية ، وان تحافظوا على تراث ١٧٨٩ ، فان من واجبكم ان تساعدوني ، انا ورفاقي هنا ، في النضال من اجل المباديء نفسها .

من جهة اخرى ، فانتم ـ بصفتكم مواطنين فرنسيين ـ تسهمون في الحفاظ على سيادة القمع الذي تمارسه الدولة اليهودية . ذلك ان المال الذي يستخدم هنا « لخلاص » الاراضي يأتي جزئيا من عندكم ، وهذه المساهمات تعتبر عندكم « اعمالا خيرية » ،وهي بهذه الصفة ، يمكن ان تقتطع من المداخيل لفرض الضرائب . انني ليبرالي ، فانا اذن مناصر لحق كل فرد بأن يستخدم ماله كما يشاء . انني يهودي ، وقد تألمت في عهد هتلر ، وامنع حق اي انسان في اي مكان ان يشارك ماليا بالحركة النازية . ولكنني اعارض ان تساعده الدولة التي يعيش فيها ان يفعل ذلك . وهكذا، اذا وجد في فرنسا اشخاص يريدون ان يعطوا مالهم ليغذوا هنا القمع والتمييز والعنصرية ، وليسمحوا للدولة اليهودية بان تقول للعرب : « اندفعوا من هنا » فهذا حقهم . ولكن اذا كانت الدولة الفرنسية تعتبر هذه المساعدات « اعمالا خيرية » ، وتعفيها من الضرائب على الدخل ، وتورط بهذه الطريقة جميع مواطني فرنسا في القمع والتمييز اللذين يعيثان هنا فسادا ، فان هذا غير مقبول ! ان لي ملء الحق آنذاك بان اطالب المواطنين الفرنسيين ودولتهم الا يشاركوا في بناء جدران « باستيلي » او في تحصينها !

واخيرا ، اختتم بما قد يكون الجوهر : اذا عرفتم الوقائع ، وكففتم عن ان تكونوا اسرى الافكار المسبقة والاكاذيب التي اتهم معظمكم بالمضي في الانحياز لها ، فانكم تساعدون انفسكم بصفتكم كائنات بشرية . ان حياة خالية من النقد ، حياة يستسلم فيها الانسان لافكار سابقة من غير ان يضعها على محك الامتحان، ليست جديرة بالانسان . ان الوضع الذي تخشى فيه اغلبية الجمهور الاوروبي ان تطرح اسئلة ، وتخشى اضاءة المشكلات ، وتخشى نقد كل ما هو متصل بالدولة اليهودية ، انما هو وضع غير صحي بالنسبة لهذا الجمهور نفسه . فاذا اقمتم نقاشا حرا وعقلانيا ،وطرحتم اسئلة قاعدية ، وقارنتم بين الاوضاع ، وفكرتم بطريقة مستقلة وعقلانية ، ونصحتمونا ، نحن وجميع الاخرين،بأن نمضي في الدرب الذي شققتموه عام ١٧٨٩ ، درب الحرية ، فانما تساعدون انفسكم ، وتساعدوننا، وتساعدون الانسانية في التقدم خطوة الى الامام .

ب ـ الحقوق المدنية في اسرائيل اليوم

يحركني حقا ان هناك الآن في اسرائيل حركة يهودية عربية ايجابية وقادرة . ان الشعبين يقاتلان معا وشعارهما : « يحيا التضامن اليهودي العربي » . انهما يقاتلان من اجل طراز من العدالة المتساوية لصالح كل كائن بشري .

وقد تعززت هذه الحركة بالتظاهرة المتعلقة بقريتي ايكريت وبيرم ، وبالتظاهرة التي تبعت في القدس : كان خمسة آلاف شخص من اليهود والعرب يسيرون معا ويناضلون من اجل قضية واحدة ! ومع ذلك ، فاني اود ان ابادر ، بالنسبة لعملية ميونيخ ، الى شجب كل عمل ارهابي ضد المدنيين والاشخاص العزل . واعتقد ان لكل انسان الحق بأن يقول انه على حق . واعتقد ان لي الحق ، انا كذلك ، بان اشجب بلا تردد اخذ الرهائن وقتل المدنيين اللذين تقوم بهما حكومتي . وانا لا اقيم اي تمييز ، واقول ان اخذ الرهائن وتصفيتهم عمل نذل

بحد ذاته . ان كل انسان هو عالم برمته ، وأضيف أن هذه القضية تزيد صعوبة مهمة الذين يقاتلون معا لاقامة عدالة واحدة في الشرق الاوسط .

وأود الان ان انحدث عن الاقلية غير اليهودية ،عن العرب الفلسطينيين في اسرائيل . وسأتحدث باختصار فيما بعد ، عن التمييز ازاء الطوائف غير العربية . ولكن التمييز الاهم هو الذي يمارس ضد الاقلية الفلسطينية وسأقسم الموضوع الى ثلاثة اقسام : فأبدأ بمفهوم يجهله عمليا كثيرون منكم ، انتم المرتبطين بالصحافة كمصدر اعلام ، هو مفهوم « التهويد » ، واضرب مثالا له : فعلى بعد خمسة عشر ميلا تقريبا من شمال شرق حيفا ، مدينة تدعى كارميال ، اقيمت عام ١٩٦٥ على ارض عربية مصادرة تخص قرية دير الاسد العربية .

هذه المدينة مخصصة قانونيا ورسميا لليهود . ولا يحظر على العرب فقط ان يسكنوا فيها ، بل حتى ان يفتحوا فيها تجارة . وقد برزت منذ زهاء عام ونصف حالة درزي فلسطيني (وهو بالتحديد ضابط سابق في الشرطة الاسرائيلية) اراد ان ينشىء مقلعا لحجر القطع ، فرفض طلبه . وحدثت حالة اكثر صدما ،منذ زهاء خمسة اشهر ، بالقرب من كارميال : لقد اراد السيد محمد معروف ، وهو رجل غني من قرية دير الاسد ، ان يفتتح مصنعا في كارميال ، فقام نقاش عنيف لمعرفة اذا كان سيمنح اذنا ام لا : وحتى الآن ،كان الجواب سلبيا .

ولتصوير جو وضع العرب في اسرائيل ، ولتدركوا الى اي حد تبلغ قلة الحقائق عن الوضع الواقعي ، ساقدم لكم بعض الآراء التي عبر عنها اعيان كارميال حول هذه المسألة ، مع العلم بأن مصادري هي اساسا الصحافة اليهودية .

هاارتس ، الصحيفة الاسرائيلية الهامة ، بتاريخ ١٨ شباط من ذلك العام (١٩٧٢) : يقول سكرتير مجلس العمال ، بلسان موشه بريشمور : « اذا كان القرار ايجابيا ، واذا اذن لمعروف ان يفتح مشروعه ،فعلى عماله، العرب ان يعيشوا هنا . ولكننا لن نجعل من كارميال عكا اخرى . (عكا هي مدينة يعيش فيها العرب واليهود معا) نريد ان يعيش اليهود ويعملوا وحدهم هنا » .

ويقول سكرتيره السيد راهل تيروش : « ولكن اذا سمحنا لهم ان يعيشوا هنا فسيحرفون بناء كارميال عن غايته : تهويد الجليل » .

ويقول شموئيل فرايدر ، النائب رئيس بلديةالمجلس المحلي : « انني اعارض ان يعيش العرب هنا وما دام سكاننا لا يتجاوزون ٤٥٠٠ نسمة . حين نصبح ١٥الفا، فربما ... »

ويبدي الصحفي ملاحظة : « ولكن مئات من العمال العرب يعملون ، فعليا ، في كارامبال » .

فكان الجواب : « صحيح ، ولكنهم يعملون فقط في المنشآت اليهودية وفي اعمال يدوية » .

وان اي مشروع جديد تود جماعة من العرب انشاءه ينبغي أن يحصل على اذن يشترط ان يستخدم فيه يهود مقيمون .

ولفهم الظاهرة ، تصوروا ان الوضع نفسه يحصل في باريس . تصوروا مثلا ان جمعية يؤسها مسيحيو المدينة لمسيحيي الشانزليزيه او مسيحيي « باسي » ، وان هذه الجمعية التي يساعدها المجلس البلدي لباريس تبدأ بمصادرة او بشراء الدكاكين والمصانع شرط ان تؤجر او تعطى بكل بساطة الى مسيحيين ، والا يستخدم فيها اليهود الا عبر اشغال يدوية . وانا اسجل هذا فقط لان عندي وثائق طيبة بهذا الصدد . وليست كارميال هي الحالة الوحيدة . هناك حالة الناصرة الفوقا وكثير غيرها من المدن التي تطرح فيها الاسئلة . ان هذا الوضع عام في اسرائيل .

انني لا اعارض هذه التصرفات كانسان فقط ، بل كيهودي ايضا ، وانا فخور بان اكون يهوديا . انني لا استطيع ان اطالب للشعب اليهودي بحقوقه في انحاء العالم اذا لم اقاتل من اجل ان يمنح الفلسطينيون الحقوق نفسها .

بالاضافة الى ذلك ، أؤكد ان اضطهادا عنصريا لغير اليهود في اسرائيل لا بد من ان يؤدي الى مزيد من مناهضة السامية في العالم . ليس بالامكان تجزئة العدالة : فاما ان تكون الحقوق هي نفسها لكل فريق في الشرق الاوسط ـ حق العرب في ان يستقروا ويعيشوا ويعملوا في كل مكان من اسرائيل ، وان يفتحوا تجارات لهم ـ واما ان يتحول الموقف بحيث يصبح اليهود موضع التمييز العنصري في باريس ، في مثل الظروف نفسها التي يعيشها العرب الآن في اسرائيل .

والمنظمة الرئيسية التي تحرك هذا البرنامج للتهويد ، وهي ناشطة جدا هنا وفي فرنسا ، هي « الصندوق الوطني اليهودي » . انني ارفض هذه المنظمة في داخل اسرائيل وخارجها طبعا ، لان انظمتها تشترط صراحة انها تحصل على الاراضي لتؤجرها الى يهود او لتستخدم فيها يهودا على سبيل الحصر . وبالفعل ، فان كمية كبيرة ، بل معظم الاراضي في اسرائيل ، هي ملك هذه المنظمة وهي خاضعة لشروطها .

وبامكاننا ان نلاحظ شكلا اخر من اشكال التمييز

ازاء العرب بصدد حقوق الانسان ، في امكنة اقامتهم الخاصة . ونحن لا نتحدث هنا عن الانتقال الى كارميال او الى اي مكان اخر في اسرائيل : بل نتحدث عن حق العيش في امكنة يسكنونها حاليا ، باعتبارهم مواطنين اسرائيليين منذ اربعة وعشرين عاما ونصف العام.

وسأستشهد على سبيل المثال بزميلي في اللجنة التنفيذية للرابطة الاسرائيلية لحقوق الانسان : وهو محام عربي من الناصرة يدعى عبدالحفيظ دروزة .

وبالرغم من انه محام ، فان الاقامة الجبرية في الناصرة مفروضة عليه . فماذا يحدث حين يريد ان يحضر جلسة في محكمة حيفا ، وما هي الاجراءات حين يريد ان يحضر اجتماعا للجنة التنفيذية للرابطة الاسرائيلية لحقوق الانسان في تل ابيب او في القدس ؟ ان الاجراءات هي التالية : ان عليه ان يقصد ،قبل اسبوعين على الاقل ، الى اقرب مفوضية للشرطة ليطلب اذنا . ويرسل الطلب الى القيادة العسكرية للمنطقة : فاما ان يحصل على الاذن او لا يحصل عليه . ولكي اكون منصفا اقول : انه يحصل دائما على اذنه ليقصد المحكمة ، ولكنه لا يحصل عليه دائما لحضور اجتماعات رابطة حقوق الانسان .

واورد مثلا آخر : مثل رجل اعرفه شخصيا ،وهو صديق من اصدقائي العرب يدعى عثمان ابو راس ، فرضت عليه الاقامة الجبرية ايضا في قرية اسرائيلية تدعى « تيره » لاكثر من خمسة عشر عاما . وفي شهر شباط ١٩٧١ ، أخذ يعاني الما في اسنانه ، فكان عليه ان يزور طبيبا للاسنان في جوار ناتانيا . وقد طلب اذنا فصل عليه بصورة رسمية لثماني زيارات للطبيب. وبعد الزيارة الرابعة ، سُحب منه الاذن بحجة رسمية (لانني توليت انا نفسي القضية) انه لم يكن يذهب توا الى الطبيب ، وانما رؤي وهو يتسكع في الشوارع . وقد وجب على بضعة افراد منا ان يقوموا طوال ستة اسابيع او سبعة بمساع جادة للحصول على اذن بسلسلة اخرى من الزيارات للطبيب .

هل يُراد مثل آخر على ما يعنيه هذا الوضع ؟ ان أحد اصدقائي العرب في اسرائيل هو شاعر ، يدعى سميح القاسم . وهذا الرجل مفروضة عليه الاقامة الجبرية في حيفا . ومع ذلك فهو ليس من مواليد حيفا بل من قرية « رامة » التي تبعد عنها حوالي سبعة وثلاثين كيلومترا . هذا يعني انه لا يستطيع ان يزور عائلته الا باذن . وفي اواخر ١٩٧٠ ، مرضت امه ، فطلب اذنا ، وفق الاجراءات المعتادة ، لزيارتها .

ولكونه لا يحظى برضى السلطات التي تمنح هذا الاذن (فهو يكتب اشعارا لا تلاقي القبول الرسمي) ، فانه لم يتلق اي نبأ عن اذنه المطلوب : وطوال اسبوعين ، تلفن عدة اشخاص ، وهددوا بنشر هذا الامر في الخارج ، ولا سيما بين بعض الشعراء الفرنسيين الذين يهتمون بالشاعر العربي ، فكان ان انتزعنا وعدا قاطعا بانه سيحصل على الاذن يوم الجمعة التالي ، وابلغناه ذلك تلفونيا الى حيفا . وصباح الجمعة ، قصد مفوضية الشرطة وانتظر الاذن ، فتسلمه في الساعة الثانية بعد الظهر . ومع المسافة في الاوتوكار (معظم النقليات في اسرائيل تتم بالسيارات العامة) كان هذا يعني انه كان يستطيع ان يستقل السيارة الى رامة ،وان يركض الى بيت امه ، فيبقى فيه عشر دقائق او ربما عشرين ، قبل ان يدرك سيارة العودة الى حيفا . وقد استبدّ به غضب شديد جعله يقذف الاذن بوجه الشرطي .. ولم يقم بزيارة امه . وينبغي ان اضيف ان امه قد شفيت .

ان بوسعي ان اورد امثلة كهذه ، لا بالعشرات ،بل بالمئات . وعملي هو ان اساعد هؤلاء الناس ، وان اقاتل معهم ، لا من اجلهم ، بل معهم . واني اطلب منكم اخيرا ان تضعوا انفسكم موضع عربي فلسطيني الحرّ انه مواطن اسرائيلي .. هو يعلم انه قد يتلقى كل صباح مذكرة رسمية تقول : « انا الموقّع ادناه ، قائد المنطقة، اعتبر ان صالح دولة اسرائيل يقضي بفرض الاقامة الجبرية عليك لفترة كذا .. » وليس له اي مرجع شرعي : المرجع الوحيد هو ان يستأنف لدى رئيس الاركان العامة .. ولكني لم أعد افعل ذلك ، لان في هذا ضياع وقت وورق .

والتبرير المألوف لمثل هذه المعاملة هو الامن . وبوصفي مواطنا (مقيما) اسرائيليا ، سأكون مستعدا الى حدّ معيّن لقبول هذا التبرير . ولكن ما لا اقبله هو ان تتصرّف السلطات العسكرية كقضاة . لقد وردت اقتراحات كثيرة ، ليس مني فقط ، بل من آخرين، مثل يوري افنيري ، بتكوين فريق من القضاة المدنيين المستقلين ليقضي في هذه القضايا . ولو تكوّن هذا الفريق ، صوابا او خطأ ، فقد كنت سأطلب من الناس ان يلجأوا الى قراراته وان يقاتلوا . ومع ذلك ، فان هذا الاقتراح قد تجوهل ، بالرغم من طلبات عديدة غطّت حقبة طويلة .

وحول مسألة الامن هذه ، نستطيع ان نستعيد حالة كارميال . ان العرب الاسرائيليين لا يُسمح لهم ان يفتحوا فيها دكاكين او ان يعيشوا فيها ، ولكن يسمح لهم بالعمل فيها . والواقع انهم يعملون في بناء بيوت يحظر عليهم سكناها . من اجل هذا ، وبينما يمكن تبرير حجة الامن في بعض الحالات ، أحس احساسا قويا بأن التمييزات التي يذهب ضحيتها العرب الفلسطينيون في اسرائيل لا علاقة لها بالامن في ٩٠ بالمئة من الحالات . ان الامن حجة هامة ، لا سيما بالنسبة للذين ليس لديهم أعلام صحيح .

والحالة الثالثة والاخيرة ، بصدد عرب اسرائيل الفلسطينيين ، يتعلق بالمواطنية ، وخاصة بقانون العودة . ويمكنني ان ابدأ طبعا بمشكلة الفلسطينيين الذين طُردوا ، وان اسأل (كما فعلت غالبا) :« ايّ حق لدولة اسرائيل ــ دولتي ــ التي انا مواطن فيها ، ان تمنح كل يهودي حق المجيء للاقامة في حيفا ، حين يكون مولودا في موسكو ، بينما تحرم هذا الحق للاشخاص المولودين في حيفا ؟ » ولكني اريد ان اتحدث عن مشكلة اساسية اكثر من هذه . فأنتم تعرفون ان كل دولة ، او ان كثيرا منها على الاقل ، يسمح للمواطنين المتزوجين بأجنبية (او العكس) ان يختاروا مكان اقامتهم . فاذا تزوّج مواطن بريطاني اية امرأة ، واذا اراد الزوجان العيش في انكلترا ، فلهما الحق في ذلك ! والحق نفسه قائم في كل مكان . اما في اسرائيل ، فان هذا الحق مرفوض في الحالتين . وقد اتيح لي ان اهتمّ بقضايا عديدة تزوّج فيها عربي فلسطيني بأجنبية (وقد تعدّدت هذه الحالات عام ١٩٦٧ لان الناس كانوا قد اعتادوا اللقاء في قبرص او في اثناء زيارة القدس بعيد الفصح ، وتزايدت هذه الحالات بعد ١٩٦٧) ، ولم يكن امام الزوجين ، في جميع الحالات ، الا خيار واحد : « اذا اردتما ان تبقيا زوجين ، فاتركا البلد » وانا اتحدث عن الحالات التي صُدق فيها الزواج باحتفال حقيقي . ولعلكم عرفتم حديثا ، من الصحف ، حالة عكسية وقعت في الاتحاد السوفياتي . فقد قصدت مواطنة يهودية اميركية موسكو وتزوجت مواطنا سوفياتيا . وبعد ذلك ، لم يُسمح لها بمغادرة البلاد . وينبغي ان اقول ان مثل هذه المشكلات تُعدّ بالالوف ، وخاصة بعد ١٩٧٦ . وفي جميع الحالات ، تُمنع الاقامة في اسرائيل .

واذا وضعنا الوان المضايقات جانبا ، فان عددا كبيرا من العرب العائشين في اسرائيل يجابهون برفض منحهم المواطنية . وعددهم الحقيقي غير معروف . زهاء ستين الفا او سبعين الفا من اصل ثلاثمئة وخمسين الفا من العرب الاسرائيليين . وقد رفض منح هؤلاء الاشخاص المواطنية الاسرائيلية خلال اربعة وعشرين عاما ، وما هو اسوأ ان اولادهم ايضا لا ينالونها . فما الذي يحدث لهؤلاء الاشخاص ؟ ان وضعهم كعديمي الجنسية ، ما داموا يعيشون في اسرائيل ، لا تزعجهم كثيرا ، لان القانون الاسرائيلي لا يقيم الا وزنا قليلا بين المواطن والمقيم الدائم . ومع ذلك ، فان التمييز يظهر حين يريدون مغادرة اسرائيل موقتا : انهم لا يخرجون بجواز سفر اسرائيلي ، بل ببطاقة سفر تصلح تماما لمدة عام ويوم واحد . فاذا بقوا لسبب ما مده اطول وغالبا ما يحدث هذا على غير ارادتهم) فانه لا يسمح لهم بعد ذلك أبدا ان يعودوا الى البلاد .

عرفت حالة مؤسفة بصورة خاصة ،في آب ١٩٧١، تتعلق بشاب عربي من قرية « عرّابة » في الجليل ، قرب الناصرة : فقد غادر اسرائيل في نهاية ١٩٦٥ في فترة ازمة اقتصادية خطيرة ، وذهب وحده لانه، كعائل اسرة ، كان في وضع سيىء جدا . وسافر الى تركيا حيث بقي عاما تقريبا . وحاول طوال ثلاثة اعوام تقريبا ان يعود ، ثم استولى عليه يأس شديد لانه كان يعيش وحده في تركيا ، وعائلته كلها في عرّابة . وفي آب ١٩٧١ ، ركب طائرة تركية ، وهبط في مطار اللد : فلم يُسمح له حتى بأن يتحدث الى قاض ، وبقي محجوزا فيما يسمى رسميا بالمنطقة الخارجية للمطار ، واعيد تسفيره على اول طائرة الى تركيا حيث لا يزال الى اليوم .

وكمثل اخير يتعلق بفئة العرب الذين حكم عليهم بأن يتركوا مسقط رأسهم ، اذكر ايضا مثل عرب اعرفهم شخصيا والذين لا مرجع لهم ، بالتأكيد . وبصفتي رئيسا للرابطة الاسرائيلية لحقوق الانسان ، لا اهتم بحالات السجناء المحكومين ، وانما فقط بحالات الحبس الاداري او السجن الاعتباطي . وحين يكونون في السجن او في المنفى في قرية بعيدة ، يُمنحون هذا المخرج : « اتركوا بلدكم تكونوا احرارا اليوم » .

واورد ثلاثة امثلة ذات مغزى .

المثل الاول يتعلّق برجل يدعى نعيم الاشهب من القدس الشرقية . أذكره لانه ضرب الرقم القياسي في الحبس الاداري التعسفي بلا ادنى مبرّر للحبس ،وهو حوالي ثمانية وثلاثين شهرا منها ثلاثة عشر قضاها متخفيا . وطوال هذه المدة ، تلقّى عروضا بالحرية

الفورية ، اذا قبل بان يترك البلاد . وهذا الرجل الشجاع جدا ، اصبح اعمى تقريبا في السجن . فقد فقَدَ استعمال عينه اليسرى ونصف عينه اليمنى . وانتهى به الامر الى الخضوع ، فذهب ، مخلفا وراءه زوجته وصبيين .

الحالة الثانية هي حالة عربيّ اسرائيلي يدعى محمد يوسف صديق من مدينة شفا عمرو . وقد سجن هذا الرجل بصورة اعتباطية ايضا – بلا مبرر للسجن – في اواخر تشرين الثاني ١٩٧٦ ، وظلّ في السجن حتى آب ١٩٦٩ . واخيرا خضع لما يسمى « دعوة الى الخروج الى الولايات المتحدة » فسيق الى المطار ، ووضع في طائرة من غير ان يُخبر اهله . وقال له الضابط : « لا ترجع . اذا عدت الى اسرائيل،فستذهب الى السجن » . وبعد عامين ، في ١٩٧١ ، قرر محمد يوسف ان يعود . وقد فعل ذلك بشكل رسميّ اذ كتب رسالة الى رابطة حقوق الانسان والى الصحف الاسرائيلية (ومنها المجلة الاسبوعية هاعوليم هازه لصاحبها يوري افنيري الذي نشرها) وفيها يقول انه لم يتهم بشيء ، وانه كان بريئا كليا ، ثم حاول ان يعود الى اسرائيل ، الى بيت ابيه في شفا عمرو .

ولكنه اعتقل في الطائرة على الفور ، وحُجز في مطار اللد بضعة ايام ، ثم نقل الى منزله في شفا عمرو حيث وضع في الاقامة الجبرية . وقد حظر عليه ترك البيت الا لثلاث زيارات الى مركز الشرطة ، كل يوم في ساعة محددة .

وهو يؤكد ان هذه الشروط ظلّت مفروضة عليه حتى ترك البلاد . وهو الآن في الولايات المتحدة حيث يدرس في « دنفير » (1) ، وانا هنا اكتفي بايراد حالات الاشخاص الذين اعرفهم ، وانا اعرف هذا الرجل شخصيا .

اما الحالة الثالثة فتخصّ صديقا من افضل اصدقائي ، فوزي الاسمر ، احد الشعراء الشبان العرب في اسرائيل ، الذي اعتقل في آب ١٩٦٩ وظل في السجن سبعة عشر شهرا ، وجميع المساعي التي قمت بها مع اشخاص اخرين ، تلقّت جوابا رسميا ، خطيا وشفهيا في وقت واحد ، وهذا الرجل في رأيهم ارهابي خطر ، واطلاق سراحه يهدّد وجود دولة اسرائيل برمّتها . وقد يدهشكم ،او لا يدهشكم ، ان تعلموا اني ذهبت الى لندن واستطعت ان أجعل عدة شخصيات انكليزية معروفة تهتمّ بمسألته ، بحيث بادروا الى الكتابة للحكومة الاسرائيلية طالبين منها توضيحا ، وقد اطلق سراح الرجل بعد خمسة اسابيع او ستة من ارسال الرسائل ، فنقل في « الاقامة الجبرية » في منزله العائلي في اللد . وقد قامت محاولات عديدة لاقناعه بالرحيل . ولكن جميع التهديدات ذهبت سدى ، لان هذا الرجل هو احد اصوات التضامن اليهودي العربي . وفرضت عليه الاقامة الجبرية اثني عشر شهرا اخرى . وكان قد سبق له ان عاش اثني عشر عاما في تل أبيب ، وحين طالب بحق العودة الى مدينته الاصلية لانه كان يستطيع ان يحسب فيها عيشه (فهو كاتب ومترجم) اجيب رسميا بانه من الاسهل مراقبة العرب في بيئتهم الطبيعية . فما هي هذه البيئة الطبيعية في اللد ؟

ان اللد هي بصورة رئيسية مدينة يهودية تضم زهاء خمسة عشر الف نسمة . ويعيش مئتان وخمسون عربيا تقريبا في ما يسمى رسميا وصراحة «مجبرا» – غيتو ، كما في الولايات المتحدة) ، وذلك على مقربة من السكة الحديدية ، ويسمّى المكان تقنيا « حيّ السكة الحديدية » ، ولكن الاسم الذي يعرف به أولئك الذين يأتون لزيارة اهلهم هو « المجبر العربي » . بهذا يسميه الجميع .

ويحسن الآن أن نترك جانبا العرب الفلسطينيين في اسرائيل وان نقول بضعة كلمات عن يهود اسرائيل اولئك الذين يسامون العذاب . هناك بالتأكيد مسألة الذين يدعون « اليهود الشرقيين » الذين يمكن وصف تعذيبهم بأنه اجتماعي على نحو ما ، ولكني اود ان اتحدث عن التعذيب المشروع المنقسم الى فئتين .

الفئة الاولى هي فئة اليهود الذين ليسوا يهودا ، ان هذا ليس مزاحا ، بل هو واقع . فهناك مثلا اشخاص ليست جدّتهم يهودية . والقانون اليهودي ينص على ان الشخص يهودي اذا كانت امه وجدته يهوديتين، او اذا اعتنق اليهودية على يد حاخام اورثوذكسي . فاذا اكتشف صدفة ، كما هو الحال غالبا ، ان جدة امرأة او رجل اسرائيليين لم تكن يهودية ، يرفع امرهما الى مكتب الحكومة ، ويحاولون مصادرة هويتهما لتغيير سجلهما من «يهود» الى غير «يهود» والاطرف من ذلك ،انهم يسجلون « المانية » على البطاقة اذا قدمت الجدة من

---

(1) حصل محمد يوسف صديق على درجة S.C.L من جامعة كولفيت عام ١٩٧١ . وبعد وصوله الى الولايات المتحدة تعلم العربية في واشنطن ، وهو الان مرشح لجامعة PH.D كاليفورنيا في بركلي في الادب المقارن العربي – العبري .

المانيا ، او « روسية » اذا قدمت من روسيا . وهناك حالة اهتم بها الآن : فقد ثبت ان جدّة رجل كانت تترية من روسيا ، فسُجل هذا الرجل رسمياك « تتري » . ماذا يعني هذا ؟ يعني اولا ان هذا الرجل لن يستطيع ابدا ان يتزوج في اسرائيل ، والزواج الديني وحده صالح ، ولكن انواقعة الاهمّ ان زوجته واولاده يتلقون ضغوطا هائلة لكي يعتنقوا اليهودية . وانواقع انه يطلب اليه ان يقدّم « تضحيات كبيرة » للدولة . ولنأخذ مثالا آخر ، فان القادمات الجديدات يُرسلن الآن ، على نفقتهنّ ، الى احد انفنادق ، ويُجبرن على الاستماع الى الحاخامين يدعونهن ، هنّ واولادهن ، الى اعتناق اليهودية . والنصّ الوارد بصدد « تضحية تغيير الدين » مقتبس من خطاب السيدة غولدا مايير حول حالة « شاليت » . ان السيدة مايير توجّهت بنفسها الى السيدة شاليت والى سائر النساء اللواتي هن في وضعها ، طالبة اليهن القيام بهذه التضحية والرضوخ لاحتفال اعتناق اليهودية .

الفئة الثانية من اليهود هي فئة المزعومين « يهودا هجناء » . ومرة اخرى ، أؤكد ان ليس في هذا تلاعب كلام ، بل هي عبارة قانونية تعني في القانون اليهودي شيئا مختلفا اختلافا كافيا عن ترجمته . انه ينطبق على الاشخاص المولودين من الزواج المضارّ (الزواج باثنتين) . وهو لا يشمل هؤلاء الاشخاص فقط ، بل يشمل اولادهم واحفادهم الى الابد . فاذا اعلن عن زواج بأنه مضارّ ، حتى ولو كان الاصل يعود في التاريخ الى الجدة والى جدّة الجدة ، فان الشخص يعلن هجينا او نغلا ، ويحظر عليه الزواج .

هناك حاليا في اسرائيل حالة شخصين ، ماجور في الجيش الاسرائيلي واخته ، اعلنا متحدرين من زواج مُضارّ ، لان امهما كانت قد تزوجت مرة اخرى من غير ان تخضع للطلاق الديني . وقد حظر عليهما ان يتزوجا . وكيف يطبَّق هذا التشريع ؟ هناك سجل معروف رسميا من قبل « الاشخاص المحظور زواجهم » ، وهو بشكل شبه رسمي « الكتاب الاسود » ، وهو يحمل اسم كل شخص ، وخصوصا كل يهودي يريد ان يتزوج . وعدد الاشخاص الذين يحظر عليهم الزواج عدد هائل . والعدد الدقيق مجهول ، ولكنه حوالي عشرة آلاف ، واعتقد ان عشرين الفا اكثر دقّة .

واكرّر ، في الختام ، ان اي تمييز لا يمكن ان يبرر القتل ، وبخاصة قتل المدنيين والرهائن العزّل . على اني اشعر شعورا عميقا بأن على الذين يدينون القتل الذي يرتكبه الفلسطينيون ان يدينوا ايضا القتل الارهابي نفسه الذي لا يدبره اليهود فقط ، بل بأمر سلطات دولة اسرائيل . ان في كل شعب مذل ومضطهد، عصبة من المتعصبين ، حتى في الشعب اليهودي ، اذا تذكرنا الطبيعة البشرية « وعصابة شتيرن ، التي ارتكبت جرائم مماثلة ، مثال على ذلك .

ان دربا ايجابية تنفتح امامنا لاقامة السلام والعدل في الشرق الاوسط : ان من واجب جميع البشر في العالم ان يمزجوا نضال اليهود والعرب المقاتلين جنبا الى جنب من اجل العدالة وشعارهم هو الذي أعطانا اياه المطران ريا : « فليعش التضامن اليهودي العربي حياة طويلة » .

ترجمة « الآداب »

بيان الصفدي

قصائد عن البحر .. والأرض الموحشة

« البحر بذاكرتي »

السفن المهجورة لم تكتب اسمي
فوق مداخنها ،
ولهذا ظلّ البحر بذاكرتي !.

« الحزن »

حزني شيء كالنخلة والقبلة
والرحلة .. والعينين ..
ومثل صهيل الامطار •

« الاشياء »

في كل أوان
تكبر في نفسي كل الاشياء

« عفوية »

لست انادي بقيود اخرى ،
لكني أطلب ان يكتسب الواحد منا
عفويّة ثلج يتهافت
فوق طريق مهجور !.

« نوافذ قلبي »

ذبحتنا اشراك لم نصنعها ،
فتعالي !. عبر نوافذ قلبي شمس ..
وربيع .. وحكايا اطفال ..

« الدمعة »

ما دام هنالك في العالم
دمعة مقهور واحدة
فأنا مهزوم !.

« جائع »

يا اهل الارض الغرقى
اني اطلب ان يفهمني
اكبر عدد منكم ،
فانا جائع ..
جائع ..
جائع ..

« برقية الى بشرى »

بشرى !
هل وصلتك الصورة
وانا مبتسم .. اذ خلفي يبدو البحر ؟
ان لم تصل الصورة
عندي واحدة اخرى .

« البكاء »

ابكي تحت العينين الغائمتين بدمع الذكرى ،
علّ رحيما يأتي ،
يلقي للجائع حتى .. وهم رغيف يابس !

« قهر »

لم ينقذني أحد
من هذا القدر المحتوم القاهر !

« الظل »

كل حياتي تذهب
مثل الاشجار تمرّ بشباك المقصوره
وغدا ..
يمتدّ الظل الى الصوره .

« العجز »

حين احدق في وجه امرأة فاتنة
لا أرغب في ان اكتب شيئا ما ..

« النار ستأتي »

تبذرنا بالعشق ، وبالغضب المتفجر
كل بكائيّات الحاضر ،
فالنار ستأتي ،
لكن الامر على ما يبدو
قد يحتمل التأخير .

« الحصار »

الآن
حوصرت كأني ذئب تطلبه
بسُعار كل بنادق اهل الارض

« طيور البحر »

هذا العالم طاردني ،
ما عاد بقلبي متّسع الا لطيور البحر !.

« شباط ـ ١٩٧٧ ـ بغداد »

حسن الخياط

الشاشة .... الأغصان

قبل ان يدق جرس السينما ، يأخذ الصبية اماكنهم على الاشجار المائلة نحو السياج المثلم . الكبير كان قادرا على الصعود الى أبعد مسافة ، كان ينظر اليهم هازا قبضته . الصبي الصغير لا تأخذ عيناه سوى النصف الاعلى من الشاشة . جسده المرتعش لا يستطيع غير تسلق شجرة التوت البعيدة عن السياج قليلا . حين يحس بالنعاس ينزل ببطء متحسسا لحاء الساق المتيبس ، متلمسا ظلمة الزقاق المثقبة بالضوء الخافت . تحت الغطاء يعيد تركيب الفلم لنفسه .

صرخ الكبير : بدأ الفلم .. سكوب ، ملون

احدهم قال : نفس الولد ..

قاطعه الثالث : فلم كاوبوي .. كو .. كو .. كو

كان وجه البطل يغمر الشاشة . من النهر رائحة منعشة تأتيه ولغط رجال يعبرون الشارع . حين تتخدّر يداه يثبت قدميه بحيطة على الاغصان ، رافعا جسده الصغير ، وتحته يطقطق الغصن بخفوت . الشاشة تمتلىء بألوان زاهية تتبادل الامكنة ، صانعة وجوها متعبة بشراسة . ارتفعت فوهة بندقية وأطلقت .

صرخ : من قتل ؟

رد الكبير : الهندي الاحمر !

صرخ آخر : العصابة قتلته !.

دق الجرس للمرة الاخيرة وسكت .. « آه ! لو كنّا في السينما الاخرى لاستطعت ان ارى جيدا » تذكر الثقب الذي حفروه في الحائط المواجه للشاشة . كانوا يتسللون اليه في بداية الفلم من شارع يقل فيه المارة . بعد ان يتناوبوا الرؤية منه يغطونه بالحجارة ويتوزعون الى بيوتهم .

ـ الهنود يهجمون على العربة « صرخ الكبير »

ـ والولد ! « تساءل الصغير »

ـ أسكت : انهم يطاردونه « قال القريب منه »

ـ لعين : « همسها وهو يرتخي على الغصن »

« عجيب ! كيف ينجح ابنك في دروسه ؟.. لا يفيده الضرب بعد »

« يحب السينما ـ تجيبه الام ـ كل اطفال المحلة هكذا ، في الليل يشاهدون الافلام وفي النهار يعملون مثلها »

من المؤكد ان اباه عاد الى البيت وسيتفقده .. أزّت رصاصتان . هزّ رأسه ، ماسكا الغصن برشاقة وتوجس ، كان رأس الحصان ووجه البطل يتحركان بعفوية ، توقف حين انتبه لاهتزاز الشجرة .

قال الكبير : الولد يربط حصانه قرب البار

اكمل الاخر : معركة قوية ستبدأ ..

مع نفسه أكد : سيهزمهم حتما .. هكذا يحدث دائما

تعالت اصوات الضربات والتأوهات واختلطت بحماس الصبية . كان يفكر بأمه . منذ الصباح احست بوجع حاد في بطنها المنتفخة . كان ذلك يحدث كما في الصيف الماضي . لايام تتلوّى وبعدها جاء اخوه الصغير .

صرخ الكبير : الولد يحاصر رئيس العصابة بالكلمات .. بم .. بم .. بم ..

ارتفع رأس الحصان شامخا على الشاشة .

ـ من يركب خلفه ؟ ! « تساءل القريب منه »

ـ رد الكبير : ابنه جيم

« جيم : ذو النمش المنتشر في وجهه ـ ظل الصغير يفكر ـ لماذا يحبه »

حدّق فيه وابتسم . كان شعره الاشقر يهتز على جبهته . مثله تماما يراقب بعينيه الذكيتين الاحراش بحيطة وانتباه . اخذ الحصان يبطىء من حركته . لم

يظهر غير بيت خشبي وسط مزرعة يملؤها خوار البقر.
ـ ليس الفلم قويا هذه الليلة
ـ لو ذهبنا للسينما الاخرى
ـ أوه ! فلم عتيق رأيناه ثلاث مرات
ـ اقدامي تصلّبت « صرخ القريب منه »
ـ ماذا يفعل الولد ! « تساءل بخفوت »
رد الكبير : انه يغتسل ..
صوت رشاش الماء يصل اليه واضحا « آه ! وجيم »
ـ يراقب من فوق شجرة التوت « صاح الكبير »
نظر الى الاسفل حين انتبه لنباح الكلب .
قال القريب منه : كلبه الشرس معه ... ها ! الهنود يهجمون »
وجوههم المبقعة بالالوان والريش المشدودة بالاشرطة على الجباه تصعد الى اعلى الشاشة وتنخفض كامواج ملونة . الفؤوس تهتز كومضات خاطفة . رأى جيم يقفز من الشجرة ويركض بعيدا ..
بدأ الرصاص ينطلق بكثافة . لم ير غير الوجوه المهاجمة يرتفع بعضها عاليا وتنهد على الارض بحركة يمتزج فيها صهيل الحصان الحاد . النار تتصاعد من البيت . بعدها لم ير غير ظهور الهنود وصراخهم المفتت تحت الغبار .
ـ سيربطونهما الى العمود ، ويرقصون حولهما « قال الكبير »
امتلأ الفضاء بأيقاع الطبول. الصغير يحس بالدوار. رأسه يثقله ضباب ساخن كما لو ان خطوط شعاع السينما تحمله . ألقى بصدره على الغصن وامسكه بقوة « تصرخ الام : سأحرق هذه العيدان اللعينة .. ستفقأ عيوننا بها » ـ يشد الشريط على جبهته الضيقة ويغرس في منتصفها ريشة الدجاجة البيضاء .. في ساحة البيت يصرخ في دائرة تحفرها قدماه « التراب ! انك تعمي عيوننا »
كان يدور ، ويدور .. ورأسه يثقب الشاشة ويتحرك عليها كما في الحلم « اننا اصدقاؤهم .. لم نقتل احدا منهم ـ همس لنفسه حين ربطوه على العمود بعيدا عن ابيه . يغمض عينيه . يود ان يصرخ .. يغيب عن ذاكرته اسم صديقة الهندي »
ـ جيم ، ليس ذكيا في هذا الفلم « كان الكبير يعلّق »
ـ انه فلم عتيق « رد الاخر »
« تراخت ضجة الهنود ، بعينين متعبتين تطلع لوجه رئيسهم . كان الرجل الكهل بشوشا . حسر شعره ، والتفت لوجه صديقه المبتسم بنعومة اليه ، وقف الصوت في حلقه .. حين استيقظ وجد نفسه ممددا داخل خيمة بجوار عجوز تدلك يديه وصدره وتهذي بكلمات غامضة » .

قال الكبير : سينتهي الفلم قريبا .
اغصان الشجرة تهتز تحت جسده الصغير ، غير ان اصابع كفيه كانت ملتفة وراء ظهره على الغصن المنحني باتجاه النهر .
ـ العصابة تهاجم جيم وتختطفه .. انهم يشدون قدميه ويرفعونه الى الاغصان « صرخ الكبير »
« صخب رجال العصابة الملتحين يتعالى .. أحس بجسده طائرا في الهواء .. عيناه لم تمسكا غير كعوب أحذيتهم المسننة بالشفرات ، الحبل يحز كعبيه بشدة ورأسه يدور بينهم ككرة طافية »
صرخ الكبير : سينقذه الهنود والولد وينتهي الفلم
رد الآخر : أشعر بالنعاس
من بعيد كانت رؤوس التلال صامتة ، لا أحد يخرج منها .
ـ أراهن انهم سيقطعون الحبل بسكاكينهم « صرخ احدهم »
« شكلوا دائرة من الضجيج حوله ، وبدأت سكاكينهم اللامعة تخترق الهواء بصوت سريع »
ـ لو كنت انا لقطعته بأول ضربة « قال الكبير »
جسده الصغير ينتفض بين الاغصان ، وحجر ثقيل يغادر رأسه المرتعش . عصا مالك الاشجار تلاحق قدميه. بخفة قفز الى الاتجاه المعاكس للرجل . أحس بطرف ثوبه مشدودا لغصن مقطوع . سبح للحظات في الهواء .
صرخ الكبير : لقد تحطم جيم .. يا للمسكين !
على الارض تكور الصغير ، لامّا ذراعيه على بطنه الملتهب بالالم . تراءى له جد امه وهي تصرخ خلف الباب المغلق .
صفق الكبير بقوة :
الهنود والولد يطلقون الرصاص .. جيم يركض نحو البيت .
للحظات تركه الرجل لغيبوبة خفيفة .. وجد ساقيه تنطلقان بمحاذاة واجهة السينما ، وصوت الرصاص يأتيه من الوراء كمن يلاحقه .

بغداد

تتمة محاولة في قراءة ابي نواس

ـ تابع المنشور على الصفحة ـ ١٠ ـ

في فتيـة كالسيوف ، هزهم شرخ شباب وزانهم ادب

والتشبيه بالسيوف هنا ليس مداره فحسب التالق والزهـو والرشاقة والمعرفة التي تزين لصاحبها انه قادر على الحسم والفصل وهي كلها مواضع تشابه بيـن هؤلاء الشباب والسيوف ، وانما السيف هنـا هـو ايضـا اشارة او ترشيح كمـا يقول المصطلح البلاغي ـ يمهد لهذه المعركـة السريعـة الفاصلـة التي دارت بيـن هـؤلاء الفتية وبين الزمـن فلم يقفوا له الا طرفـة عين ثم انهـزموا .

لقد خرجوا الى الحياة متحلين بكل حـسن وفضيلة ، تملؤهم روح الجمال وتهـز اعطافهم سنوات الصبا ، يعبون من الحياة الجميلة دون حذر او ريبة ، لا يبطنـون شرا ولا يتوقعون شرا ، فكانهم امثلة للجمال النقي الذي لا يقهر ، ومـا كادوا يتقدمون حتى اراب الزمـان كانـه الوحش النائم وهو في الحقيقـة كان يتظاهـر بالنوم ، وقد عكر صفو السكـون من حوله هؤلاء الفتيـة المتالقـون شبابا ووسامة ، فلم يفعل الا ان نظـر اليهم نظرة مريبة وبعدهـا انتهى كل شيء .

ثم اراب الزمـان ، فانقسموا ايدي سبا في البلاد ، فانشعبوا

ومن معاني الريب الشك ، والظـن ، والتهمـة ، والحاجة ، والصرف ، والخطب ، والخوف ، والقلق ، والفزع . ويقال ريـب الزمـان ، وريب الدهر ، وريب المنون .

وفي الابيات الخمسة التي ذكرناها حتى الان يعبـر حرف الفاء تعبيرا عن حركة الزمـان وتتابع حوادثه تتابعا آليـا . والفاء حرف عطف يفيـد الترتيب والتعقيب والسببيـة ، وهذه الوظائف كلهـا تقوم بهـا الفاء في هذه الابيات الخمسة التي يستعرض فيها ابونواس حياته الماضيـة حتى ينتهي الى ان ريب الزمـان هو الذي فـرق جماعته ايدي سبـا في البلاد .

ونحـن نرى ان هذا النزال غير المتكافيء والحتمي بين الانسان والزمـن هو محور الحس المأساوي في القصيدة . ان ينتصر هـذا القانـون اللاانساني الاعمى على الكائن الانساني الجميل الحكيم ، وان ينهزم السعي من اجل الكمـال امام حركة الزمـن الآليـة غير العاقلة.

ان حكمتنـا اذن ناقصة ، لاننا في سعينا من اجل الكمال ننسى ريب الزمـان وقدرته الهائلـة على ان يهدم في لحظـة كل مـا بنيناه في اعمارنـا القصيرة الخاطفـة . وليست المشكلـة فـي اننا نواجه من هو اقوى منا فحسب ، بل هي ايضـا فـي ان سعينا للكمـال والفضيلة يقابله في قوانيـن الوجود سعي للهدم والفناء ، وفي المعركة التي تقوم بيننا وبيـن هذا القانـون الجائر لا بـد ان ننهزم ، وهذا هـو الشر الذي نجـد انفسنـا ونحـن نبلوه وقد فقدنـا الثقـة بالاساس الذي تقوم عليه العقائد والافكار التي تسعى الـى اكساب الحياة معنى اخلاقيـا وتفرض على الانسان ان يلتزم بما تبشر به مـن قيم وحدود وقواعـد للسلوك . واذن يحق لابي نواس ان يشك في كل ما حصله في حياته الاولى من معرفة . لقد انهار فـي نفسه سلـم القيم التي نشأ عليهـا في البصرة . في المصلى ، والمربد ، والمسجـد الجامـع .

وفي ضوء هذه النتيجـة نستطيع ان ننظـر مرة أخرى في مطلع القصيدة لنرى انه الى جانب مـا ذكرناه يرمز للثقافة التي حصلهـا الشاعـر في المصلى وفي المربد (وهـو سوق ادبية نشات في القـرن الثاني في جنوب البصرة ويعـد في الاسلام كعكاظ في الجاهلية) وفي المسجد الجامع ، وفي دور البصرة وساحاتها ، فالجملة التي تبدأ بها القصيدة وهي ((عفا المصلى)) تعني ان مـا يرمز اليه المصلى من القيم والمعارف التي آمن بهـا الشاعـر في طفولته وصباه قد ماتت واندثرت في نفسه لانهـا لـم تعـد تمنحه الامـان والثقة والامل .

لمـا تيقنت ان روحتهـم ليس لهـا مـا حييت منقلب
ابليـت صبرا لم يبـله احد واقتسمتني مـآرب شعـب
كـذاك انـي اذا رزئت اخـا فليس بيني وبينـه نسـب

ان الفعل الذي اختاره الشاعـر في صدر البيت الاول ليعبر بـه عـن ان رفاقه قد رحلوا بلا عودة وهو ((تيقنت)) لا يقف عند مجرد التعبير عن الاسى والحزن ، وهي المشاعر المنتظرة من رجل مات عنه رفاقه ، وانمـا يتجاوز ذلك الى تقرير حقيقة ان الموتى لا يعودون في هذه الحياة ، وهي بديهيـة لا تحتـاج الى تقرير ، فـلا بد اذن ان يقيـن الشاعـر ينصرف الى تلـك العودة التي يؤمن بهـا المؤمنـون من المسلميـن وغيرهم فـي الحياة الاخرة والا كان الشاعر قد قـال لغـوا وهذرا . وهو اذن يريـد ان يقول ان الموتى لا يعودون ، لا فـي هذه الحياة ولا في الحياة الاخرة . وهو يستخدم في ذلك فعـلا لـه هذه الطبيعـة ((العقائديـة)) تعبيرا عـن العقيـدة الجديدة التـي وصل اليهـا .

ولا يهمني هنـا ان يكون ابو نواس ملحدا او كافرا او زنديقـا ينكـر البعث والقيامة ، فهذه المسالة وغيرها من المسائل الكثيرة التي تثير اهتمـام الباحثين في حياة ابي نواس وحقيقـة ايمـانه وطبيعة مجونه ، وهل كان زنديقـا كمـا يرى بعض الباحثيـن ام كان مجرد ماجـن مستهتر كمـا يرى اخرون ، اقول ان هذه المسالة وغيرها مـن المسائل المتعلقة بحياة ابي نواس واخلاقه وعقيدته لا تهمني الا بمقدار ما تلقي الضوء على شعـر ابي نواس ، لكنهـا ليست المقياس الذي نقيس به هذا الشعـر او نعتمـد في تحليله عليه فنقبل وننكـر ، بدليل مـا في ايدينـا من وقائع حياته ومبادىء عقيدته واخلاقه . وقد يكون ابو نواس كافـرا ملحدا ثم لا تحمل القصيدة مع هذا شيئا من كفـره والحاده ، وقد يكـون مؤمنـا حسن الايمـان ثم تكون القصيدة مع هذا تعبيرا عن تجربة روحيـة تتعارض مع الايمـان . فالشاعـر لا يعبر عن ايمانه الشخصي بالضرورة وانمـا يصطنع ضروبا من الخيال ويغامر في طرق من الاشواق والاحلام ماضيـا فيهـا الى نهاياتها ، خالقا منهـا قصيدته ، ولعله يستفيد فـي كل هـذا من معتقداتـه الشخصية وثقافته وتجاربه العملية ، لكـن كمـا يستفيـد اي مبدع اخر كالروائي او المسرحي الذي لا ينتظـر منه لكي يكـون فنانا خالقـا ان يصنع كل شخصياتـه على مثالـه او يلبسهم افكاره ومعتقداته .

ان القصيدة خلق جديد متميز ، ولربمـا جاءت تعبيرا صادقا عن حيـاة قائلها ، لكنه صدق غيـر مطلوب ، ولربمـا تناقضت مع حيـاة قائلهـا ، لكنه تناقض غير مذموم ما دامت قد خرجت قصيدة مستوية الشخصيـة تامة الخلق . امـا ما يبقى في القصيدة مـن صاحبهـا ويظل شاهـدا عليه بلا مراء ، فشيئان : الاول صناعـة الشاعر او مذهبه الجمالي ، والاخـر جوهـر تجربته الروحيـة او مـا يسمى احيانا بفلسفـة الشاعـر .

على ان انكار ابي نـواس للبعث لـم يكن مجرد خلق شعـري ظهـر في احدى قصائده ، بل كـان خاطرا ملحا في شعره وفكره الذي لم يكـن بعيدا عـن تأثير الديانات والمذاهب بمـا فيهـا بعض المذاهب الاسلاميـة التي كانت تنكر البعث والقيامة والتـي كانت لا تـزال حيـة فـي عصر ابـي نـواس .

ان عدم القدرة على تصور قيام حياة اخرى غيـر هذه الحيـاة التي نعيشهـا قديم قدم الوثنيـة العربية ، ((ان هي الا حياتنا الدنيا ومـا نحـن بمبعوثين)) ((وقالـوا مـا هي الا حياتنا الدنيـا نموت ونحيـا ومـا يهلكنـا الا الدهر)) (*)

(*) سورتا الانعام والجاثية

ويقول شاعر جاهلي :

حيـاة ثم مـوت ثم نشر   حديث خـرافة يا أم عمرو !

ويقـول شداد بن الاسود يرثي قومه المشركين من قتلى بدر :

يخبرنـا الرسول بأن سنحيا   وكيف حياة اصداء وهام !

وقبل الوثنية العربيـة لم يستطع البابليون ان يروا بعد الموت الا خلودا هامدا فـي سديم مظلم . وكـان الزرادشتيون يقولون « ان هذا الخلق بمنزلة النبات يموت منه شيء ويحيا منه شيء » فالخلود عندهم يتحقق بتعاقب الموت والميلاد في هذه الحياة التي لا بدايـة لها ولا نهايـة ، امـا عند الهنود فيتحقق الخلود بخلاص النفس من اسر الجسم وعودتهـا الى معدنهـا الرفيع بعـد ان تتناسـخ في اجسام المخلوقات لتعرف الخير والشر .

واذا كان الاسلام قد رسخ في النفوس عقيدة البعث والحساب والخلود في الآخرة ، فهـو لـم يبدد تماما العقائد التي تنكر البعث والحياة الاخرة ، وكانت هذه العقائد ما تزال تحيـا حياة قويـة في البلاد التي فتحهـا المسلمـون ، وخاصة ما رآه المسلمـون منها اديانا كتابية عدوا اتباعها في الذميين الذين لهم حق التعبد على طريقتهم كالمجوس أو الزرادشتيين الذين كفل لهم الاسلام حريـة العبادة فظلت بيوت النار التي يتعبدون فيهـا مشتعلة زمنـا طويـلا بعـد انتشار الاسـلام .

ولقـد ادى استمرار هذه العقائد خاصة بعد اتساع رقعةالفتوحات الاسلاميـة في زمـن الامويـين وانفتاح العرب المسلميـن علىالشعوب المغلوبة وعلى حضاراتهـا وثقافاتهـا في زمـن العباسيين ومـا وقع بين العرب بعضهم وبعض وبينهم وبيـن غيرهم من الشعوب من خلافـات حادة وصراعات دامية ـ ادى هذا كله الى ظهـور الفرق والمذاهـب والشيع السياسية والدينية المختلفة ، وادخل في عقائد بعض المسلمين ومنهم بعض العرب الشك في البعث والحساب . بل ان بعض المؤرخين لا يعفـون احـد خفاء بني اميـة وهـو الخليفـة الشاعـر الماجن الوليد بن يزيد من تهمـة انكار البعث والحساب مستدلين عـلى ذلك بمـا ينسبونه اليه مـن شعـر كمـا نرى في هذيـن البيتيـن اللذين وردا في رسالة ابـن القارح الى أبي العلاء المعري منسوبين الى الوليد :

اذا مت يا أم الحنيكل فانكحي   ولا تاملي بعد الفراق تـلاقـيـا
فان الذي حدثتـه من لقائنـا   احاديثطسم تترك العقل واهيا

وبعض الروافض وهم فرقة شيعية متطرفـة ينكرون القيامةوالجنة والنار مثل المنصوريـة اتباع منصور العجلي ، وكان بعضهم الاخر يقولون برجعـة الاموات الى الدنيـا قبل القيامة مثل المحمدية وهي من الشيعـة الامامية ، وشاعرهم يقول في ذلك :

الى يـوم يؤوب النـاس فيه   الى دنياهم قبـل الحسـاب

فاذا عدنا الى ابي نواس وجـدنا ان انكار البعث خاطر يتردد كثيرا فـي اشعـاره ، يقـول :

فدعى الملام فقد اطعت غوايتي   وصرفت معرفتـي الـى الانكار
ورأيت اتيان اللذاذة والهـوى   وتعجلي مـن طيب هذي الدار
احرى واحـزم من تنظر آجل   علمي به خبـر مـن الاخبـار
ما جاءنـا احد يخبـر انـه   فـي جنة من مات او في نـار

ويقول منكرا كل شيء متمثلا بقول الجاهليين في الرد على قول الاسـلام بالبعث والخلود :

يا عاذلي في الدين ذا هجر   لا قـدر صـح ولا جبـر
ما صح عندي من جميع الذي   يذكر الا المـوت والقبـر
فاشرب عـلى الدهـر وايامـه   فانمـا يهلكنـا الدهـر

ويقول :

بـاح لسانـي بمضمر السر   وذاك انـي اقـول بالدهـر
بين رياض السرور لي شيع   كـافـرة بالحسـاب والحشر
موقنـة بالممـات جاحـدة   لمـا رووه مـن ضغطـة القبـر
وليس بعـد الممات منقلب   انما المـوت بيضـة العقـر

وبيضـة العقر آخر الاولاد فهي النهايـة التي ما بعدها نهاية.

ولم يكـن ابو نواس وحده الذي تردد هذا الخاطـر على رأسه، ففيره كثيرون من الشعراء والادباء واصحاب المذاهـب والفـرق السياسية والدينية الذين كانوا يلهجون بأمثال هذه الافكار وبأخطر منهـا فيساقـون الى الموت او الى السجن او الى التوبة ، او لا يهتم بأمرهم أولو الامر فيظلون بمنأى عن كل هذا .

ونحن نرى اذن ان انكار البعث كانشيئا موجودا من قبل ابي نواس، وكـان موجودا في زمنه وبعد زمنه ، بل كانت هذه الفكرة وغيرها من افكار الزنادقـة والملحديـن انشط مـا تكون في عصر ابي نواس ، فلا عجب ان تتردد في شعره . وليس يهمنـا ان تكـون مجرد خاطر ماجـن كان ابو نواس يردده مع غيره من الخواطر الماجنـة تحرشـا بالديـن او تلذذا بالمخالفـة والاستهتار لا غيـر كمـا يذهب بعض الدارسين . او ان تكون عقيدة يؤمن بهـا ابو نـواس باعتباره زنديقا ملحدا كمـا يرى بعضهم الآخر . لا يهمنـا ان نثبت هذه او تلـك فحسبنـا انهـا كانت خاطـرا شعريا كثيرا ما يتردد في شعـر ابـي نواس في سياق معاناته كشاعـر لمأساة الموت تدفعه فكرة القصيدة الى انكـار البعث او الشك فيه او اثباته كمـا نرى في بعض قصائـده التـي تنطـوي على وجدان اسلامي جياش .

فاذا عدنـا الى قصيدتنا وجدنـا ان الشاعـر قد وصل فيها الى اليقيـن بأن من يذهب لا يعـود ، لكـن هذا اليقيـن الذي وصـل اليه قـد هز اعماقه هزا وهد امنه وبلبل خاطره واسقط الظل على هذه المرحلـة الاولـى من حياته التي كان فيهـا مؤمنا بالبعثوالنشور. لقد مـات الطفل والشاب في الشاعـر ، فهـو لا يرثي هؤلاء الفتيـة الا ليرثي من خلالهم نفسه التي خلت « منهـا » البصرة ومرابعهـا والتي انتهت بنهايـة اقرانها ، او هـو في الحقيقـة يرثـي فكرة الحياة ذاتهـا ، فلم يكـن ما يصله باقرانه نسب او سبب غير النسب مـن الاسباب المادية والاجتماعية ، وانمـا كـان يصله بهم انهم كانـوا جميعـا صورة للحياة الشابة والجمال والحكمـة والبراءة ، وفي هذه المرحلة من الحياة يتوهم الانسان ان الزمـن معه وليس عليه . لقـد اعطاهم الزمن الشباب واعطاهم البراءة وحسن الظـن فهم لا يـرون الشر ولا يتوقعونه ، ولا يستطيعـون ان يروا فاصـلا بينهم وبيـن هذه القوة المسماة بالزمـان ، حتى اذا تعرضوا لحادثاته ورأوا آثاره فيهم جماعـة وافرادا بدت لهم الحياة شيئـا والزمـن شيئا آخر . ولا يزال الشاعـر هنـا يخلص من تامله لمصيـر اصحابه الى التامل في مصيـره هو حتى ينتهي من كل ذلك الى مصير الحياة ذاتهـا ويقف في مواجهـة الموت لا فردا بالذات تربطه بهذا او بذاك صلـة النسب ، وانمـا انسانا تتمثل فيه حياة الناس جميعـا فيلهج بالاسئلة التـي تعذبهم ويحلمهم بزمن آخر غير هذا الزمن الوحشي المعادي .

قطربل مربعي ولـي بقرى	الكرخ مصيف ، وامي العنب
ترضعني درهـا وتلحفني	بظلهـا والهجير يلتهب
اذا تثنته الغصون جللني	فينان ما في اديمه جوب
تبيت في مأتم حمائمه	كما ترثي الفواقد السلب
يهب شوقي وشوقهن معا	كانما يستخفنا طرب
فقمت احبو الى الرضاع كما	تحامل الطفل مسه السغب
حتى تخيرت بنت دسكرة	قد عجمتها السنون والحقب
هتكت عنها والليل معتكر	مهلهل النسج ما له هدب
من نسج خرقاء لا تشد لها	آخية في الثرى ولا طنب
ثم توجت خصرها بشبا	الاشفى فجاءت كانها لهب

ونحن نرى ان المفردات الدالة على الزمن صراحة أو مجازا كثيرة أيضا في هذا المقطع ، ومنها (المربع ، والمصيف ، والفواقد، والسلب ، والرضاع ، والطفل ، والسنون ، والحقب) .

ولقد نستطرد في هذا التحليل اللغوي فنجد ان نسبة الافعال المضارعة في هذا المقطع قد زادت كثيرا مقارنة بنسبتها في المقطع الاول .

ومن الطريف ان نجد ان عدد الافعال التي استخدمها الشاعر في هذا المقطع المكون من عشرة ابيات تماثل عدد الافعال التي استخدمها في المقطع الاول الذي جاء في تسعة أبيات ، فقد استخدم في كلا المقطعين تسعة عشر فعلا ، لكننا نجد ان نسبة الافعال المضارعة في هذا المقطع قد زادت كثيرا فقد بلغت تسعة افعال هي (ترضعني ، تلحفني ، يلتهب ، تبيت ، ترثي ، يهب ، احبو ، يستخفنا ، تشد) في حين ان المقطع الاول لم يكن يضم الا فعلين مضارعين اثنين .

وبنظرة سريعة في هذا المقطع نجد ان الشاعر يعبر عن تجربة يعيشها الان وسوف يظل يعيشها الى ما لا نهاية ، فنحن نراه يختصر الزمن في (المربع والمصيف) كانه قد فقد الاحساس به وكأن الزمن قد فقد تأثيره عليه . وهو بهذا الاختصار ايضا يصور حركة الزمن من المربع للمصيف ومن المصيف للمربع وكانها عود على بدء ، او كانها حركة دائرية لا بداية لها ولا نهاية ، فهي بخلاف حركة الزمن في المقطع الاول التي كانت تسير في خط مستقيم فهي روحة بلا منقلب . الا اننا نرى ان الشاعر في هذا المقطع قد عاد طفلا فهو يعبر عن عودته الى الطفولة تعبيرات شتى (امي العنب ، ترضعني درها وتلحفني بظلها ، فقمت احبو الى الرضاع كما تحامل الطفل) ونحن اذن امام زمن جديد ، زمن يراه الشاعر سرمديا لا ينتهي بالموت وفردوسيا لا شر فيه ولا الم ، زمن كله لذة ومتاع وبراءة بلا نهاية . فكيف حصل الشاعر على سر هذا الزمن ، وما هو الاكسير الذي رده طفلا ووهب له الخلود ؟

انه الخمر !

والخمر في القصيدة هي المعادل الموضوعي للانسان على رأي اليوت ، فهي مثل الانسان جسد وروح ، وهي مثل الانسان تغالب الزمن ، وهي في هذه المغالبة تفقد جسدها الذي يجوز عليه الفناء والبلى كجسد الانسان ، على انها تنتصر على الزمان . فكلما عتقت طابت وتخلصت من نفاياتها المادية وبقيت لها روحها او جوهرها صافيا قويا .

والخمر تنتصر على الزمان ايضا لانها قادرة على الغاء وعي شاربها بالزمان وفعله ، ولان الزمن بعد ان يمسك الخمر طويلا في الدن لا يستطيع الا ان يبوح بها ويطلق روحها وعندئذ تصبح الخمر ندا للزمن وكفوءا له ، بل تتحول فتصير من جنسه وتصبح لها القدرة على ان تفعل فعله في الناس ، وهذا هو معنى ابيات ابي نواس في احدى قصائده :

صفراء تفترس النفوس فلا ترى	منها بهن سوى السنات جراحا
عمرت يكاتمك الزمان حديثها	حتى اذا بلغ السآمة باحا
فاباح من اسرارها مستودعا	لولا الملامة لم يكن ليباحا
فأتتك في صور تداخلها البلى	فازالهن وانبت الارواحا

انها تصبح من جنس الزمن بما تستطيع من افتراس الابدان والنفوس المتجسدة ، وبما لها من حصانة ضد الفناء والبلى ، فكانها بضعة من روح الزمن او نطفة من صلبه .

وهنا يصح ان نقول ان الخمر هي المعادل الموضوعي للزمان أيضا كما انها هي المعادل الموضوعي للانسان ، او بعبارة اخرى انها الرمز الذي يلتقي فيه الانسان بالزمان ويتصالحان بعد حرب وصراع .

وحول هذه المعاني تدور كثير من خمريات ابي نواس ، فالخمر قديمة خلقت قبل آدم وشهدت كسرى وسام ابا العرب ، فكأنها صنو الدهر ، او احد العقول التي فاضت عن العقل الاول ، او احد الموجودات المطلقة الكاملة التي لا تخضع للكون والفساد كما يقول الفلاسفة القدماء :

كريمة أصفر آبائها	ان نسبت كسرى وسابور
طوى عليها الدهر ايامه	وعميت عنها المقادير
فلم تزل تخلص حتى اذا	صار الى النصف بها الضير
جاءت كروح لم يقم جوهر	لطفا به او يحصه نور

★

قهوة لو انها نطقت	ذكرت ساما ابا العرب

★

اسقنيها سلافة	سبقت خلق آدما
فهي كانت ولم يكن	ما خلا الارض والسما

★

فاسقني الخمر التي اختمرت	بخمار الشيب في الرحم
ثمت انصات الشباب لها	بعد ما جازت مدى الهرم
فهي لليوم الذي بزلت	وهي ترب الدهر في القدم

وكما عادت الخمر للشباب في هذه الابيات الاخيرة بعد ما شابت في دنها وتجاوزت سن الهرم ، يريد الشاعر ان يعود للحياة بعد ان انتهى عمره الاول الذي رثاه في المقطع السابق .وليس سوى الخمر دواء للزمن وحصانة ضد البلى والفناء وسبيل الى الفردوس السرمدي الذي يعيش فيه الانسان طفلا جميلا لا يطاله شر ولا يناله الم . وما على الشاعر في القصيدة الا ان يتحد بمعادله الموضوعي ويصبح لطول معاقرته الخمر وفعاليته لها

نغالبها اولا وتغلبنا	فنحن فرسانها وصرعاها

اقول يصبح الشاعر وكانه والخمر جوهر واحد فقد منحها نفسه وتنازل من اجلها عن حياة الصحو وهي حياته الاولى الفانية ،ليكتسب حياتها هي الباقية وليصبح طفلا من اطفال الكرمة ممسوحا بدمها ومعمدا برحيقها .

ولقد يقول قائل وما لنا نذهب بعيدا في التخريج والتأويل ونحن نستطيع ان نقول ببساطة ان الشاعر الذي شهد غياب رفاقه وفارق احبابه بالبعد او بالموت يخشى هذا المصير على نفسه فهو يشرب لينسى او ليجرب الخروج من حالة الصحو الى حالة

السكر وهو عنده تمثيل للموت ، ثم ليجرب الخروج من حالة السكر الى حالة الصحو وهو عنده تمثيل للبعث او للعودة الى الحياة ؟

ولا شك ان هذا المعنى القريب صحيح تماما ، لكنه معنى ناقص لا يحيط بما في مفردات القصيدة وصورها من ايحاءات بعيدة وظلال كثيرة ومعان فرعية تنبع من ان الخمر في القصيدة ليست كما هو الشائع دواء يمنح النسيان ، وانما هي رمز للحياة الخالدة ، او هي رمز للقدرة على مغالبة الزمن ، ومن هنا تأتي في شعر ابي نواس صورة السكر الذي كأنه الموت :

فلم نزل نسقي ونلهو به ... ونأخذ القصف بآيينه
حتى غدا السكران من سكره ... كالميت في بعض احايينه

كما تأتي ايضا في شعره صورة السكر الذي كأنه الخلود في النعيم المقيم الذي يفيء بعد التطهر في النار ، نار الشمس :

وخيمة ناطور برأس منيفة ... تهم يدا من رامها بزليل
اذا عارضتها الشمس فاءت ظلالها ... وان واجهتها آذنت بدخول
حططنا بها الاثقال قبل هجيرة ... عبورية تذكي بغير فتيل
تأيت قليلا ثم جاءت بمدفة ... من الظل في رث الاباء ضئيل
كانا لديها بين عطفي نعامة ... جفا زورها عن مبرك ومقيل
حلبت لاصحابي بها درة الصبا ... بصفراء من ماء الكروم شمول

او نار الكأس :

تلتهب الكف من تلهبها ... وتحسر العين ان تقصاها
كأن نارا بها محرشة ... نهابها تارة ونغشاها
كان لها الدهر من اب خلفا ... في حجره صانها ورباها
في روضة بكر الربيع لها ... جاور حوذانها خزاماها

وانما الح في ايراد هذه الشواهد واستطرد في تحليلها بقدر ما الح الدارسون في تبسيط خمريات ابي نواس والتهوين من شأن مجونه ، فأنت لا تكاد تجد دارسا يرى في ابي نواس اكثر من عربيد متهتك ماهر في قرض الشعر وخاصة في وصف الخمر مع ميل الى التقليل من شأنه حين يقارنونه بغيره من شعراء الخمريات المتفلسفين كالعمر بن الخيام وابن الفارض ، اللهم الا قليلا منهم اذكر من بينهم ايليا حاوي الذي نظر في خمريات النواسي نظرة منصفة فرأى ان استخفاف ابي نواس (لم يكن استخفاف غباوة ، وانما هو استخفاف رجل لم يصل به التساؤل الى يقين يطمئن اليه ، وبذلك تصبح خمرته خمرة وجودية اذا جاز التعبير كخمرة عمر الخيام) وان كان ايليا حاوي يرى ان خمرة ابي نواس كانت (وسيلة للخدر من مواجهة المصير وما يشتمل عليه من شعور بالضعة والتفاهة والعقم) وان ابا نواس (لم يعبر عن هذا الواقع تعبيرا مباشرا واضحا).

والحقيقة ان الخمر لم تكن عند ابي نواس الشاعر وسيلة للهرب من المصير ، ربما كانت كذلك عند ابي نواس الرجل ، اما عند الشاعر فكانت وسيلة للتحديق فيه كما نرى في هذه القصيدة التي ندرسها وفي كثير غيرها من خمرياته . والحقيقة الاخرى ان ابا نواس عبر عن تأملاته في الموت والحياة والصداقة والحب واللذة والطبيعة والايمان والجحود واليأس والامل والفقدان والوجدان والندم والوحشة والامن تعبيرا واضحا تواتر في اشعاره حتى ارتفع في كثير منها الى مرتبة المصطلح او الرمز الذي يصلح مفتاحا لتفسير ديوانه كله كما نجد عند غيره من الشعراء المتفلسفين كالخيام وابن الفارض وابن عربي وغيرهم ممن اتخذوا الخمرة موضوعا لاشعارهم .

ثم نعود الى القصيدة والى ما كنا قد انتهينا اليه فيها حول الاتحاد بالخمرة :

قطربل مربعي ، ولي بقرى الكرخ مصيف ، وامي العنب

ولقد احصيت المواضع التي يذكرها ابو نواس في خمرياته فوجدتها كثيرة منها على سبيل المثال بهراذان ، والصالحية ، والعقر ، وطيرناباذ ، وبغداد ، والانبار ، والقادسية ، والمطيرة . لكن ابا نواس يشرب في هذه الاماكن ويذكرها في شعره فلا تشعر ان لها دلالة خاصة ، حتى اذا ذكر قطربل او الكرخ احسست انه لا يذكر حانة او موضعا كان يغني عنه ذكر موضع آخر ، وانما هو يذكر مكانا حبيبا الى نفسه ، مكانا يحيطه في القصيدة بأنفاس من التحنين والشوق ، فهو لا يورده دائما في مقام التسجيل وانما اكثر ما يأتي به في مقام الحلم والتحنان والشوق الى راحة البدن والروح كأنما فيه يحط احماله الثقال والامه المضنية .

ان قطربل بالذات هي رمز للجنة عند ابي نواس . ولقد رأيته يذكرها ويذكر الكرخ في اكثر من عشرين قصيدة من خمرياته التي وصلت الينا في ديوانه .

وامي العنب !

وانظر اذا هي فابلتك تهيوءا ... نظر اليتيم الى يد الام

يقول الاستاذ عبدالرحمن صدقي في كتابه البديع « الحان الحان » تحت عنوان « الكرمة المكرمة » :

« وما برحت الكرمة الشجرة المكرمة منذ القدم . وقد ذهب قدماء المصريين في تمجيد الكرمة الى ان اوزيريس اول من التفت الى شجرتها وعني بثمرتها ، وانه اول من استنبط عصرها ولقن الناس الطريقة التي درجوا عليها ، كما علمهم استنبات الكرمة وتعهدها . وكذلك كان شأن الاغريق والرومان ، فقد جعلوا فضل اتخاذ الخمر من الكرم للاله باوخس ، ولولا كرامة الخمر عند القوم ما اتخذوها زلفى يتقربون بها على مذابح اربابهم .

ويظهر تكريم هذه الشجرة عند العرب من هذا التأنق في صفتهم لها « فهي الشريفة العنصر ، تضحك عن ثمر حلو المخبر ، كأنه شماريخ الجوهر ، وكبائس الشذر العنبر استخرجته الايام ، من الغمام . ونقلته الازمان ، الى ضمائر الاغصان . فصار غذاء يراه العيان ، بعد ان كان هواء خفي المكان . ثم عاد ماء لطيف المنظر ، جميل المصور ، كالزعفران ، وكعصارة المرجان » .

واذا كان الاسلام يحرم الخمرة في الحياة الدنيا فهو يعدنا بنهر من خمر لذة للشاربين في الجنة ، وكأن هذا الوعد اعتراف بالتضحية الهائلة التي الزمنا بها .

وفي ضوء هذا كله نستطيع ان ندرك ما في هذا المقطع من حس ديني عميق كأنه تصوير لطقس من طقوس العبادة ، بل هو في حقيقته كذلك . فالشاعر يحاول فيه ان يتحد بالزمن السرمدي وان يبعث في عمر جديد لا نهائي . وهذا هو سر ما في هذا المقطع من صور الموت والفردوس ، وسر ما فيه من ايماءات جنسية ، اذ ان الجنس ايضا ملجأ من ملاجيء الانسان في صراعه ضد الموت والفناء .

لقد دخل الشاعر جنة قطربل وعاد طفلا يرضع لبن الكرمة ويستظل بظلها الفينان بينما يلتهب الهجير من حوله . ولهب الهجير هنا يؤكد الحس الديني في الصورة ، فهو يوحي بالنار التي تقابل الجنة ، الى انه ايضا صورة من صور الزمن المحدود والعمر القصير والحياة اليومية التي يتخبط فيها الانسان باحثا عن اسباب رزقه متعرضا خلال ذلك للدهر وحادثاته . واذا كان هذا الظل السابغ الذي ينعم فيه الشاعر يوحي بالغيبوبة والسكر والنوم والاحلام ، فالهجير الملتهب يوحي بالصحو وقسوة الواقع وضعف

الانسان امام قانون الطبيعة الذي لا بد ان ينتهي بالناس الى الموت . وهنا يفزع الشاعر الى صورة اخرى من صور الجنة الاسلامية ، تلك هي صورة الحمائم الهادلة . انها ورقاء ابن سينا، او هي النفس التي تخلصت من البدن وعادت لتتحد مرة اخرى بالنفس الكلية ، وهي ارواح الشهداء في الجنة ، ففي رواية حول استشهاد جعفر بن ابي طالب في غزوة مؤتة ان جثة جعفر حملت الى المدينة ودفنت بها ، فامر الرسول الناس ان يكفوا عن البكاء لقد ابدل الله جعفرا من يديه اللتين قطعتا جناحين يطير بهما الى الجنة. وهناك بعد ذلك حمامة الغار وحمام الحرم وتقديس عامة العرب للحمام واليمام . فالحمائم هي اذن رمز للارواح الخالدة . لكن الصورة ليست صورة خالصة للفردوس ، فحمائم هذا البيت لا تمرح سعيدة بالقرب من عرش الله ، وانما هي تبكي في المآتم نسوة فقدن احباءهن . انها اذن صورة للمنازعة بين حقيقة الموت وحلم الخلود ، او ان الشاعر هنا ينسلخ رويدا من صورة الواقع ويدخل في الحلم الذي صنعه أو في الزمن الاخر الذي بدأه ، او في ذلك الزمن السرمدي الذي توسل بالخمر للوصول اليه ، وهنا يجهد الشاعر ليقترب من هذه الحمائم الارواح بعد ان خلصته الخمر من اسر الجسد وقوانينه واصبح روحا مؤهلا للاتحاد بالارواح الهادلة حتى يصبح شوقه شوقها ويختلط طربه ببكائها وهديلها ، وحين يتحقق له هذا الاتحاد يعود طفلا .

فقمت احبو الى الرضاع كما ... تحامل الطفل مسه السغب

هنا تتحول الصور فتصبح دلالاتها الجنسية صريحة بعد ان كانت تلميحات في الابيات السابقة . وعند النقاد الفرويديين ان الكاس اشارة للنهد ، وان الطيور والشجر رموز لاتجاه الطفل نحو الثدي « فالشجرة ــ كما يقول احد هؤلاء النقاد في دراسة له عن الرومانتيكيين الانجليز ــ تمتص السائل من الارض الام وقت الربيع وتتنفس خلال اوراقها طوال الصيف وتتخلص من عصارتها في الخريف ، ولهذا معان ضمنية محددة تتصل بالفم ، ومع ذلك تبدو الطيور هي اكثر رموز الثدي شيوعا في الادب الرومانتيكي ، وقد بدا هذا عسيرا على الفهم في أول الامر ، وخاصة ان التحليق في الجو له بعض الارتباطات بعملية الاتصال الجنسي ، وان الطائر يعد رمزا لعضو التذكير . والحقيقة التي تبدو ذات اهمية خاصة بالنسبة للشعراء هي ان الطيور تعد وحدها من بين فصائل الحيوانات التي تعبر عن مشاعرها في اغان اضطرارية ــ وهو تفسير مناسب للرمز اللاشعوري المعادل لتعبيرات طلب الثدي بالنسبة للطفل » .

وتتوالى صور هذا الاتصال الجنسي بين الشاعر والكرمة في ذلك الفردوس المتخيل (والجنة الاسلامية لا تخلو من مثل هذه الصور، فهي تتحدث عن انهار من خمر ، وحور وولدان ، وشجر يتساقط ثمره في الايدي والافواه بمجرد الرغبة فيه)

هتكت عنها والليل معتكر ... مهلهل النسج ما له هدب
من نسج خرقاء لا تشد لها ... آخية في الثرى ولا طنب
ثم توجات خصرها بشبا الاشفى ... فجاءت كانها لهب

اي انه دخل بيتا او خيمة من الخيام التي كانت تقام للشراب في القرى الفارسية ومزق عنها نسيجها المهلهل في الليل المعتكر (لاحظ ان الفعل اصبح الآن يتم في الليل وكان قد بدا في الهجير الملتهب دليلا على الاستغراق الذي وصل اليه الشاعر في حلمه ونشوته وعلى انتقاله تماما الى عالمه المتخيل او زمنه السرمدي). وليست هذه الخيمة التي مزق الشاعر استارها والتي يقول انها من نسج امرأة حمقاء ، وان حبالها التي تشد بها الى الارض غير ثابتة ــ هذه الخيمة المهلهلة ليست الا هذا العالم المادي الذي يراه الشاعر متهدما منهارا ضعيف الاسس مختل القوانين ، فهو يكشف زيفه ويهتك ضعفه باحثا في ظلمته المعتكرة عن دواء لداء الموت يهب له عمرا جديدا وحياة اخرى ، وما هذا الدواء الا الخمر العتيقة التي صارعها الزمن فصرعته وخرجت من السنين والحقب جوهرا خالصا وروحا صافيا . وهو يتوجه اليها كانه فارس او متعبد يحمل مثقبه ويطعن به خصر الدن او الزق كانه يصارع عدوا مجهولا او يقدم ضحية لاله جبار ، فتسيل دماء الزق كانها لهب . واللهب عنصر اساسي من عناصر الصورة الشعرية الخمرية عند ابي نواس وعند كثيرين من شعراء الخمر ، واللهب هو النار الخالصة من الدخان . واللهيب هو انسيال المضيء الخارج من الاجسام المحترقة فهو روح النار وجوهرها الخالص ، ومن مترادفاته اللهبة وهي العطش والبياض الناصع النقي . ويستعار اللهب للفرس فيقال الالهوب للفرس المجتهدة في عدوها حتى يثار انغبار او يخرج من حوافرها نار . ويستعار للبرق فيقال الهب البرق اي تدارك لمعانه حتى لا يكون بين البرقتين فرجة . والملهب هو الرائع الجمال . وتدخل النار في صنع الخمر المطبوخة فكانها تدخل في تركيبها وتتحد جوهرها بها . والنار عند الثنوية وهم القائلون باصلين قديمين مدبرين في نشأة العالم هي رمز لاله النور والخير المقابل لاله الظلمة والشر ، وبعض الثنوية يقولون ان النور كان وحده نورا محضا ثم امسخ بعضه فصار ظلمة . والنار هي احدى الاسطقسات (العناصر) الاربعة التي ركب منها العالم في رأي الفلاسفة الطبيعيين الاغريق . فاللهب في القصيدة هو رمز للنماء ، والري على عطش ، والنصاعة ، والفتوة ، والسر الكوني ، والجمال ، اي انه رمز الالوهية ، والقداسة ، والنور ، والخير المنتصر ، والروح القديم الباقي . وليس هذا استطرادا خارجا عن الموضوع ، فهذه الافكار والمذاهب كلها كانت قائمة مؤثرة في عصر ابي نواس ، اي هذه الايماءات تستقيم تماما مع التجربة التي تعبر عنها القصيدة .

واستوسق الشرب للندامى ... واجراها علينا اللجين والغرب
اقول لما تحاكيا شبها ... ايهما ــ للتشابه ــ الذهب
هما سواء وفرق بينهما ... انهما جامد ومنسكب
ملس وامثالها محفرة ... صور فيها القسوس والصلب
يتلون انجيلهم وفوقهم ... سماء خمر نجومها الحبب
كانها لؤلؤ تبعثره ... ايدي عذارى افضى بها اللعب

في هذا المقطع الاخير يختفي الشاعر تماما ويبدو العالم ، او على الاصح يرتفع الشاعر فوق العالم بعد ان حقق لنفسه الخلاص واستعاد سيطرته على الزمن . وبينما نجد في المقطع الاول احدى عشرة صيغة من ضمير المتكلم ونجد في المقطع الثاني ثلاث عشرة صيغة من هذا الضمير ، يكاد المقطع الاخير يخلو من هذه الصيغة الا ضميرين لا يحملان اية دلالة عاطفية يتحقق بها وجود الشاعر في هذا المقطع ، وهذان الضميران هما « علينا » و « اقول » . والصور هنا تتشكل من الاشياء بعيدا عن شبهة اتخاذها وسيلة للحديث عن النفس ، وهي تستمد عناصرها من مجلس الشراب وادواته محققة نوعا من الجمال المطلق او المفارق الذي لا دخل للعواطف البشرية فيه ، وانما هو ينبع مما بين هذه الاشياء والعناصر من صور التشابه والالتقاء . اي ان الزمان ايضا

هنـا يتخلص من طبيعته البشريـة اليوميـة ويصبح زمانا سرمديـا يرمز اليه ولا ينطق باسمه .

ان كئوس الفضـة والذهب التي حملت الشراب الى الندامى واجرته عليهم في هذا المجلس الرائع ليست الا رموزا لحركة الكواكب، اي ان الـــذهب والفضـة رمـــزان للشمس والقمـر بالذات او لليـــل والنهـار .

وبينمـا نجد الشاعر في المقطعين السابقين يتحدث عن الزمن حديثا صريحـا وعـن الليل المعتكـر والهجير الملهب بانتمائهمـــا المباشرة ، نـراه في هـذا المقطع يحس الزمن حسا غير بشري ، فهو لا يرى في تتابعه الا جمـالا محضا . وفي مثل هذه الحال من التجرد الروحي يختلط الامر على الشاعـر فيأخذ في السؤال ايهمـا الذهب؟ الخمر ام الكأس ؟ انهمـا متشابهان ، والفرق ان الكأس جامـــد والخمر منسكب . ثم هو يقارن بيـن كأس وكأس فيرى بعض الكئوس ملساء وبعضهـا منقوشـة بصور الصلبان والقسوس الذين يقرأون الانجيل ، فكأنهم وقـد رفعـوا ابصارهم في هذه الصور المحفورة على الكئوس يتوجهـون الى تلـك السمـاء التـي صنعتها الخمر فوقهم والتـي يتلألأ فيهـا الحبب كأنه النجوم والكواكب السيارة .

ان هذه الصورة هي الذروة التي انتهت اليهـا القصيدة ،وهي تأكيـد لصحـة فهمنـا لها ، فمـا تنطوي عليه من حس عنيف بالزمن يتمثل في هذه الكئوس التي نحب ان نراهـا كئوسـا اثريـة ولو ان الابيـات لا تقول ذلـك بصراحة ، ومـا تنطوي عليه من حس دينـي عنيف ايضـا يتمثل في هذه المقابلة بيـن انكباب القسس على صلبانهم واناجيلهم وبيـن انكباب الندامى على كئوسهم وشرابهـم (وهؤلاء الندامى هم في الحقيقـة رفاق الشاعـر الذيـن حدثنـا عن موتهم في اول القصيدة وقـد عادوا الى الحياة) . وفي هذه المقابلـة يعبـر الشاعـر عن رغبته في التسامي والتجرد بحثا عـن الخلود الدائم في عالم السماء الرائع .

لكـــن هذا كله لم يكـن اكثر من حلم او لعبة يلعبهـا الشاعر، فالزمن هو الزمن ، والحياة هي الحياة لا نجاة لاحد من قوانينهـا الجائرة المحتومـة .

كأنهـا لؤلؤ تبعثـــره ايدي عذارى افضى بها اللعب

ان الحبب ، والقسس ، والندامى ، والكواكب ، والليـل، والنهار ، والاصدقاء ، والبصرة ، وبغداد والعالم جميعـا ليس الا فقاعات صغيرة تبهرنـا بلألائها ، لكنهـا تتبعثـر وتفنـى بأيـدي العذارى اللاعبات وهن رمز الملائكـة او للكائنات السماوية التـي تلعب بمصائـر البشر .

ان الشاعر يدير القصيدة ويرد آخرها على اولهـا بهذا البيت المليء بالسخرية والشجن ، مثيرا فينا بتعبيره « آيـدي عذارى » ذات الاحساس الذي اثاره فينا بيته السابق :

ثـم اراب الزمـان فانقسمـوا ايدي سبا في البلاد فانشعبوا

باريس

جامعـة الدول العربيـة

المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

جوائز الادب الفلسطيني

تعلن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم عــن الجوائز التاليــة للادب الفلسطيني :

● الرواية او المسرحية التي تعبر عن تلاحـم النضال العربي الفلسطيني مع النضال العربي في مواجهة الاستعمار والامبريالية العالمية :

- الجائزة الاولى ٦٠٠ دولار
- الجائزة الثانية ٤٠٠ دولار
- الجائزة الثالثة ٢٠٠ دولار

● مجموعة القصص القصيرة :

- الجائزة الاولى ٦٠٠ دولار
- الجائزة الثانية ٤٠٠ دولار
- الجائزة الثالثة ٢٠٠ دولار

● الشعــر :

- الجائزة الاولى ٦٠٠ دولار
- الجائزة الثانية ٤٠٠ دولار
- الجائزة الثالثة ٢٠٠ دولار

وتدعو المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلــوم الادباء الفلسطينيين الى ارسال انتاجهم الـــذي يرشحونه لهذه الجوائز الى ادارة الثقافة بالمنظمة (١٠٩ شارع التحرير ـ ميدان الدقي ـ القاهرة) في موعد غايته منتصف اغسطس ـ آب ١٩٧٧ .

تتمة لبنان والثقافة العربية

تابع المنشور على الصفحة ـ ٣ ـ

وسوف تجد الآن في كل المكتبات العربية طبعات ممتازة لاهم كتب التراث العربي التي نفدت من الاسواق ولم يكن لها وجود بين ايدي القراء قبل ظهور حركة النشر في بيروت ، كذلك نشرت بيروت كثيرا من كتب التراث التي لم تكن منشورة من قبل .

صحيح ان هناك اخطاء كثيرة في كتب التراث المنشورة في بيروت لان بعضها لم ينشر على اساس علمي دقيق ، وانما نشر بسرعة وبدون مراجعة علمية كافية ..

ولكن هذا لا يهم كثيرا .

المهم ان هذه الكتب اصبحت موجودة بين ايدينا ويستطيع العلماء ان يتناولوها بالبحث والدراسة والمراجعة . وفرق كبير جدا بين الا تكون هذ الكتب منشورة اصلا وبين ان تكون منشورة وفيها اخطاء يمكن تصحيحها .. ولو كانت هذه الاخطاء كثيرة .

على ان بيروت لم تكتف بنشر التراث القديم بل قامت بنشر التراث الجديد .

وهنا يبرز فضل عظيم لناشر مثقف ووطني عربي مخلص هو الدكتور عبدالوهاب الكيالي ومؤسسته المعروفة باسم المؤسسة العربية للدراسات والنشر .

لقد قام الكيالي بنشر الاعمال الكاملة لمحمد عبده ، والافغاني ، وقاسم امين ، والكواكبي ، ورفاعة رافع الطهطاوي .

وكان حماسه لهذه الاعمال الفكرية هو السبب في ظهورها حيث أشرف على تحقيقها ودراستها عالم مصري فلاح هو الدكتور محمد عمارة . ولولا الكيالي وعمارة لظلت هذه الكتب وهما من الاوهام واشاعة من الاشاعات العلمية يركب اليها الباحثون كل صعب حتى يصلوا اليها ، وقد لا يصلون على الاطلاق .

بل لقد قامت لبنان بنشر اعمال كتابنا المعاصرين نشرا ممتازا ، وساهمت في انتشار هذه الاعمال على اوسع نطاق ..

فكتب طه حسين والعقاد واحمد امين والرافعي والحكيم ونجيب محفوظ ويوسف ادريس منشورة كلها في بيروت في طباعة انيقة ، وقد حرص الناشرون على توزيعها في كل انحاء الوطن العربي وبذلوا في ذلك جهودا كبيرة نادرة .

ولا يمكن ان ننسى ادب الارض المحتلة ، حيث استطاعت بيروت ان تكتشفه وتقدمه الى العالم وتنشره على نطاق واسع .

وهنا اذكر بالخير صديقنا الاستاذ احمد سعيد محمدية صاحب دار العودة التي بذلت جهدا واسعا مشكورا في هذا المجال ، وكان لها فضل كبير في ظهور انتاج محمود درويش وسميح القاسم وتوفيق زياد واميل حبيبي وغيرهم من ادباء الارض المحتلة .

وفي مجال الترجمة الى العربية قامت بيروت بدور بدور لا يمكن وصفه الا بانه دور جبار .

دور جبار .. رغم ضعف الترجمة احيانا ، ورغم غموضها أحيانا ، ورغم ما فيها من نقص وتشويه في احيان اخرى .. ولكن دور بيروت في الترجمة الى العربية ـ رغم كل عيوبه ـ هو دور اساسي في فتح الافاق العالمية امام العقل العربي المعاصر خلال ربع القرن الاخير .

كل هذا الازدهار الثقافي العظيم يحترق الان في نيران الحرب الاهلية ويضيع .

كل هذا الازدهار ينهار امام عيوننا ونحن لا نملك الا ان نبكي عليه ونتحسر .

ومن حق لبنان المثقف في محنته ان نحييه وان نقول عنه كلمة حق وان نذرف دمعة خالصة مخلصة على ايامه التي لم نقدرها حق قدرها وتركناها للنار تأكلها بلا رحمة ، وبلا حياء مما سوف يقوله التاريخ عن الذين حرقوا هذه الجنة العربية الصغيرة التي لم تكن بلا خطايا .. وقد كان واجبنا ان نحرق الخطايا وحدها .. اما ان نترك النيران تلتهم كل شيء .. فهذا هو الخطأ .

واخيرا .. ماذا اقول ؟

يا حسرة القلب ويا لوعة الضمير على ما اصابك يا لبنان !.

القاهرة